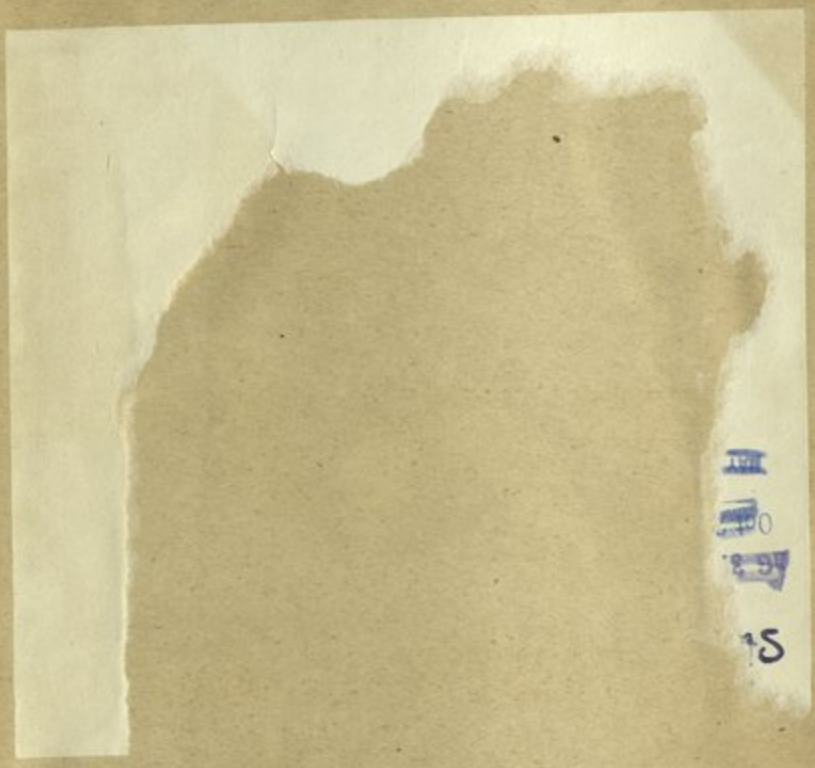

تقدمة
الى مكتبة الكلية
١٩٢٨

892.73
Sh53

توفيق حسن الشرتوني

892.78
Sh562hiA
c.1

الحكيم وليلى

قصة تحليلية تبحث في المعضلات الزوجية والمشاكل الاجتماعية

Cat. July 1937

57107

مطبعة صادر - بيروت ١٩٣٧

کلیات ۴۰۰ قرش
کبایات ۷۵ قرش
کلیات فولی ۳۷۵

رسم المؤلف

توفيق حسن الشرقاوي

ان الهدف الذي يجب ان يتوخاه الادباء في منثورهم ومنظومهم هو فائدة المجتمع الانساني وزيادة رقيّه ومعارفه .

فالكتب الادبية التي يقرأها الناس ولا تفيدهم هي بنظري ليست من الادب بشيء لأنها لا تمثّل غاية الادب السامية.

فكل من يكتب عن اخلاص وعقيدة ودرس واختبار وينبذ التصنع والتقليد والتعصب للاديان والاوطان والمجاملات الباطلة هو ولا شك يترك للاجيال المقبلة اثراً خالداً مفيداً .

ان الصدق في القول والعمل وفي الاخذ والعطاء ليس فقط هو اساس المعاملات المادية بين الناس بل هو ايضاً جوهر الادب الصافي في هذا الكون .

فالادباء الصادقون في ادبهم المخلصون في سرد افكارهم وحقيقة شعورهم هم وحدهم الخالدون .

ان مرور الاجيال يقضي على الاباطيل والترّهات ولا يبقي الاّ على الحقائق .

بيروت ٥/٣/١٩٣٧

توفيق مسعد نادر
النمرتوني

الفصل الاول

سلمى وليلى

في صباح يوم من ايام شباط ١٩٣٤ هبَّت سَلمى مذعورة من فراشها لصياح شديد حدث في دار جارتها ليلى .

فايقظت زوجها وطلبت منه ان يتفقد بيت جارتها لعلَّ طارئاً طرأ عليها او على افراد عيلتها .

فقام للحال ودخل بيت ليلى فرأى زوجها يشد بشعرها ويلطمها اللطمة اثر اللطمة وهو يعربد من السكر وهي تصيح صياحاً شديداً من ضربه المبرّح

فدخل بينهما وانتزع المرأة المسكينة من يدي زوجها وارسلها الى بيته . ثم اخذ يلطف من حدته الى ان استكنَّ .

اما ليلى فبعد ان دخلت بيت جارتها سلمى وعاد اليها روعها اخذت تقص عليها بعض الحوادث الجنونية التي يرتكبها زوجها غالباً وهذا بعض ما قالته لها :

اعذريني يا جارتي لاننا دائماً نزعجكِ بصياحنا . ان زوجي رجل قاسٍ فاحش ومقامر سكير لا يعود الى بيته قبل انبثاق الفجر وهو يجيئني تارة من الحانة سكران يزمجر ويعربد ، وطوراً من نادي المقامرة خاسراً يُرغي ويُزبد واحياناً من دور الفحش يتهدَّد ويتوعد .

وكلما وددت نصحه ضناً عليه وعلى اولاده انهال عليّ ضرباً وشتماً وكلما لاطفته وحاسنته زاد طيشاً وخلاعة . والويل لي اذا خاصمته او وقفت بوجهه في امر من الامور فيزداد فحةً وبذاءةً وينكل بي تنكيلا .

أقسم لك يا جارة أنني لولا اطفالي الذين ما برحوا بحاجة الى عنايتي لما كنت احجم عن الانتحار لاتخلص من حياتي التاعسة .

انني حزينة حتى الموت لعدم تمكني من ارشاد زوجي الى الصراط القويم ولعدم قدرتي على احتمال نقائصه الفظيعة ومعاملته الشائنة .

سلمى — لا تيأسي يا جارة إصبري على بلواكِ ولا شك انك ستنالين راحةً وفرَجا .

لا تقطعي الامل من اصلاح زوجك مهما كان خليعاً اثيماً

او مقامراً سكيراً . فكم خليع تاب عن خلاعته وكم اثيم ارعوى عن غيه . وكم مقامر او سكير عاد عن مقامرته وسكره .

ليلى — من المحال يا سلمى ان يعود عن ضلاله لانه متمرّغ في النقائص من اخمص قدميه الى قمة رأسه ولهذا السبب لا امل باصلاحه ولا رجاء لي بالراحة ولا بالفرَج .

سلمى — لا تقنطي مهما كان خطبك جللاً . فاذا لم يكن من امل باصلاح زوجكِ فاصرفي جل اهتمامكِ بامر تربية اولادك واعطفي عليهم عطف الام الرؤوم . فغداً يشبون ويرون كم ضحيت لاجلهم فيحسنون معاملتكِ قدر احسانك اليهم . ان الله لا يضيع اجر المحسنين .

ليلى — هذا حلم جميل جدا لو تحقّق . ولكن كيف يتحقق وولدي البكر يكاد يبلغ الثانية عشرة من عمره . فهل اعيش على هذه الحالة الموحشة وهذه المعاملة الشائنة الى ان يشب اولادي ؟ . لا لا ، انني اموت قبل ان اراهم رجالا .

سلمى — يظهر لي انك في غاية القنوط ليس لك بريق أمل في الحياة الهادئة المستكنة . ثقي يا جارة ان نور الامل لم يخبُ من حنايا قلبك كما تعتقدين . فاذا كنت لا تبصرين بريقه اليوم فغداً تبصرينه مشعاً في داخلك يهديك الى الطمأنينة التي تنشدينها .

لقد قنطت مثلك في ماضي حياتي ويئست يأساً شديداً . ولم اكن اتوقّع غير مستقبل قاتم وحياة تاعسة مظلمة . وها انا الان اعيش مطمئنة الى جانب زوجي على عكس ما كنت اتوقعه .

لقد قادتني العناية الالهية الى رجل حكيم انقذني من هواجسي ويأسي ومن عثراتي الكثيرة .

انني لقيته اتفاقاً في يوم ممطر كنت به في منتهى اليأس وكان جالساً في خيمة قائمة على مرتفع من حديقة معامل السيوفي آوياً اليها يتقي المطر .

هناك تعارفنا وما عتم ان قرأ على وجهي علائم الاضطراب الشديد فسألني بلطف عن امري ولما انست منه عطفاً اديت اليه بعض ما يكنه فؤادي من العذاب والالم . فرأيت به نعم المرشد ونعم الصديق .

ثم اخذنا نلتقي هناك وكنت كل مرة ابثّه جانباً من قصتي وسبب عذابي وألمي . وكان دائماً يرشدني الى طريق الصواب حتى اراحني بقوة نصائحه من كل همومي ومتاعبي .

غداً انشاءالله ادعوه وادعوكِ الى تناول الغداء واعرّفك اليه لعلك ترين فائدة على يده .

ليلى – اشكرك شكراً جزيلاً على اهتمامك بي وسأزورك غداً لأتعرّف اليه وان كنت لا اتوخى فائدة من وراء ذلك . فما كتب لي من الشقاء والتعس قد كتب .

الحكيم في بيت سلمى

في الساعة الثانية عشرة من اليوم الثاني دخل الحكيم بيت سلمى وكانت جارتها ليلى هناك فعرّفتها اليه قائلة :

ارجو منك ان تشملها بنصائحك لأنها بحاجة اليها .

فاجابها : لا رجاء على ذلك فاذا كانت تشعر انها بحاجة الى معارفي ربما اكون انا ايضاً بحاجة الى بعض معارفها .

ان الانسان مهما سما عقله وارتفعت منزلته يظل دائماً بحاجة الى اخيه الانسان .

ان المعرفة مشاع وكل امرىء مهما ضؤل امره يملك جزءاً من هذا المشاع .

ثم التفت الى ليلى وقال لها :

منذ الان تقدرين ان تتخذيني صديقاً مخلصاً ونصيحاً أميناً فلا شيء احبّ اليّ مثل رفع الاثقال والهواجس عن عواتق الناس .

ان غايتي في الحياة تنحصر في اسعاد البشر وتعليمهم كيف يجب ان يبتعدوا عن الشقاء

تعالي اليَّ ساعة تشاءين و كليني بصراحة عن كل ما يؤلمك لعلي اخفف بعض ألمك .

تعالي اليَّ بلا امتنان ولا استعطاف ان بابي مفتوح على مصراعيه يلجه اليائسون واليائسات والمنكوبون والمنكوبات .

تعالي اليَّ فانا لست من اولئك الذين يرون في جمع المال فوزاً .

ولا من اولئك الذين يرون في ارتقاء منصة الاحكام نصراً .

ولا في معاشرة الملوك والرؤساء فخراً . ولا في بلوغ اسمى المراتب الدينية او الدنيوية مجداً .

انني وايم الحق لا اشعر بفوز الاّ عندما افوز على محنة من محن الناس .

ولا احس بنصر الا عندما اقضي على آفة من آفاتهم .

ولا المس فخراً أو مجداً الا عندما اقدر ان أؤدي خدمة مفيدة لاحدهم .

ليلى — اشكرك من صميم فؤادي واعدك انني سأذهب اليك في كل فرصة تسنح لي لاتمتع بجليل حكمتك ورأيك .

الحكيم – لا شكر على الواجب فاذا كان لي رأي مفيد كما تزعمين فهو ليس ملكي بل هو ملك الناس لان مواهبي كلها مستمدة من منهل الانسانية . فاذن هي للانسانية .

وبينما هما في هذا الحديث دخل عليهما شفيق زوج سلمى عائداً من عمله . فحياهما تحية مخلصة ثم دعاهما الى قاعة الطعام .

حديث المائدة

وفيما هم يتناولون الغداء اخذ الحكيم يتحدث عن لذة الحياة العيلية الهادئة ، قال :

مهما يكن في الحياة من لذّات فاهنأها بلا جدال لذة الحياة العيلية التي يتمتع بها المرء داخل جدران بيته .

ومهما يكن في الحياة من شقاء فاشدها وطأة عَلَى المرء شقاء البيت .

ان المصيبة مهما كانت جسيمة ينتهي امدها والخسارة مهما كانت فادحة ينساها المرء بعد قليل . لكن المشاحنات الدائمة « والنكرزات » المتواصلة التي تحدث بين الزوجين او بين افراد العيلة الواحدة لا يمحى اثرها لانها تتجدد كل يوم فتجدد الحقد

والنفور وتورث الشقاء والازعاج الدائمين .

انني اشعر بفرح عظيم كلما دخلت بيتاً لا ترفرف فوقه غير ملائكة السلام والوئام .

واحس بحزن عميق عندما الج داراً لا تمرح فيها غير شياطين النقمة والخصام .

ثم التفت الى سلمى وزوجها وقال لهما :

ان الزائر الذي يلج بيتكما لا يلمس في داخله غير الالفة الصحيحة والعيش الهنيء . اني اغبطكما واغبط كل امرىء عرف مثلكما ان يعيش بطمأنينة منتصراً على متاعب الحياة ومشاكلها المزعجة .

وما خلا ذلك فاني لا اغبط احداً مهما كان كثير المال وعظيم الجاه وسامي المقام . لان المرء لا يصل الى سعادة الحياة الا عن طريق الحلم والتضحية والخلق المتين .

سلمى — ان كنت ايها الحكيم تلمس السعادة في هذا البيت فانت مصدر هذه السعادة لانني منك درست معرفة الحياة ومن جليل نصائحك ووصاياك وصلت الى السعادة التي تغبطني عليها .

فكما ان الطعام هو غذاء الاجسام هكذا كلامك المفعم بالحكمة والاخلاص والشعور هو غذاء الارواح .

الحكيم — ثقي يا سلمى ان الرجل الذي يعمل بعض واجباته لا يستحق شكراً ولا ثناء . فعلى كل امرىء ان يعمل في سبيل الانسانية على قدر ميزاته ومواهبه .

فاذا جئتِ الآن تنتقدين اعمالي فهل ترينها موازية لمواهبي؟ وهل يا ترى قمت بكل ما يتحتم عليَّ ان اقوم به تجاه الانسانية؟

انني والحق يقال اشعر بقصوري وأرى انني أستحق منكِ اللوم بدل الثناء .

ان الرجل العادي الذي يهب الناس كل ما يعرفه هو اهلٌ للثناء اكثر من العلماء والحكماء الذين لا يهبون الناس الا بعض معارفهم .

ومن يطلب من الجاهل مايطلبه من العالم فهو من الظالمين الغاشمين

سلمى — ربما كان الحق بجانبك لكن عرفان الجميل يدعوني لأن اؤودي الثناء لمن كانت نعمتي عن يده .

والآن كل ما اتمناه ايها الحكيم أن ترمق جارتي ليلى بلاحظة عنايتك والتفاتك . وترشدها بجليل رأيك وحلمك كي تهبها كما وهبتني النعمة والطمأنينة . لانها من اشقى النساء حظاً واتعسهن حياة .

الحكيم — لقد صرّحت لها انني اقوم بمساعدتها كل جهدي والان اكرر تصريحي واقول لها علانية : انني مستعد لاستقبالها ساعة تشاء وهي بقبولها خدمتي تخدمني اكثر مما انا اخدمها لانني اكون قمت بواجب مقدس يدعوني اليه ضميري وخالص وجداني .

ليلى — اشكر لك عواطفك السامية واهتمامك الكلي في خدمة الناس . لقد صمّمت ان ازورك في كل فرصة تسنح لي . فاذا لم افز بمناي واحصل على الراحة التي انشدها فعلى الاقل ابثك شكواي ، واعترف لك بكل ما يؤلمني لعلي اتعزى نوعاً عند استماعي كلامك العذب ونصائحك الرصينة .

الحكيم — ثقي يا ليلى كما ان الفنان لا يرتاح اذا تكلم عن فنه الا امام رجل يتذوق الفن . هكذا المتألم لا يرتاح اذا تكلم عن ألمه الا امام رجل يشعر بالالم .

وانا من اولئك الذين يتألمون لآلام الناس ويحسون بمضض اوجاعهم وشدة عذابهم .

والان حان وقت رجوعي الى البيت فاودّعك واتمنى ان اراك قريباً .

ثم وقف الحكيم فودّع سلمى وزوجها وشكر لهما حاستهما الشريفة وحسن ضيافتهما ، وانصرف .

الفصل الثاني

ليلى في بيت الحكيم

وبعد مرور ايام وجيزة جاءت ليلى الى منزل الحكيم فدخلت عليه مضطربة دامعة العين . فرحب بها ترحيباً جميلاً ثم خاطبها بعطف قائلا :

ماذا حدث لكِ يا ليلى لاني اراك شديدة الاكتئاب والاضطراب .

ليلى — انني مضطربة من كثرة المحن لقد قضيت الليلة وصباح اليوم وانا اتحمل شتماً ولطماً .

في منتصف ليلة أمس عاد زوجي الى البيت يطفح سكراً ومنذ اكتحلت عينه بعيني بادرني بالشتم واللطم فعاملته بالحسنى وتوسلت اليه حباً باولادنا بان يخفف من حدته . فما كان منه الاّ ان استشاط حنقاً وغيظاً وازداد صياحاً وعربدة . فأفاق الاولاد من نومهم مذعورين من شدة صياحه واستغرقوا في البكاء .

فبدلاً من ان يحنو عليهم ويؤانسهم شأن كل الآباء قام

يضربهم ضرباً مبرّحا . فدخلت بينه وبينهم خوفاً عليهم واخذت اتحمل لطماته الموجعة وضرباته الاليمة . ولم يهدأ غضبه الا بعد ان اشبعني ضرباً وشتما . ثم قام الى فراشه ونام نوماً عميقاً كأنه لم يفعل شيئاً .

فقلت في نفسي : تصبري يا امرأة ان ما فعله زوجك ربما يكون ناتجاً عن السكر فغداً ينهض صاحياً ويندم على ما فعل .

لكنه استيقظ في اليوم الثاني وكان في سكره اخف وطأة منه في صحوه .

لقد ابتدأ منذ نهوضه يرميني بقوارص الكلام، ويلطمني بيدٍ احدّ من السهام .

ولما رأيت نفسي عاجزة عن احتماله ولم ارَ سبيلاً لتهدئة روعه باللطف والمحاسنة رددت له الشتيمة ووقفت بوجهه وقفة المدافع المستميت . فازداد هياجاً وجنونا واخذ يصفعني ويصفع الاولاد بكلتا يديه بلا شفقة ولا رحمة .

ولما رأيت الاولاد يصرخون من الضرب والذعر صراخاً شديداً صحت مستغيثة باعلى صوتي . فجاء الجيران وانقذوني واولادي من بين يديه .

فتركت اطفالي في عهدتهم وجئتك وانا في غاية القنوط

متوسلة ان تنقذني من مخالب اليأس وترشدني الى طريق الخلاص الحكيم — هدّئي روعك قليلا يا ليلى واعلمي ان المرء منذ ولادته محاط بالمشاكل ومستهدف للطوارىء . وما قيمة الحياة واهميتها الا في التغلب على كل ما يحيط بنا من المتاعب والمصاعب .

تأملي الاطفال وانت ام الاطفال كيف يجاهدون جهاداً متواصلاً ليتعلموا الجلوس والوقوف والمشي .

تأمليهم كم من المرار يسقطون على الارض ويلتطمون التطاماً موئلما ولا ينفكون مجاهدين الى ان ينالوا امنيتهم .

تأمليهم كم يعانون من العذاب ليتعلموا النطق ويتغلبوا على مشاكل الطفولة .

أفما اولى بالشبان والشابات والمتزوجين والمتزوجات الذين كثرت حاجاتهم وتضاعفت مسؤولياتهم بان يقتدوا بالاطفال ويضاعفوا جهودهم في معترك الحياة ليتغلبوا على مشاكلهم ويفوزوا في اعمالهم ؟

أليس بازدياد الحاجات والمسؤوليات تزداد المتاعب والمصاعب !

اذن علينا ان نسعى دائماً لترويض نفوسنا على مجابهة كوارث الحياة مهما اشتدت وطأتها وان نغرس في قلوبنا بذور الشجاعة

ومحبة التضحية وانكار الذات لنكون في كل اعمالنا مثلاً صالحاً في ساعات الشدة كما في اوقات اللين وفي مواقف الحزم كما في مواقف الحلم وفي الصفات الحميدة كما في الاخلاق السامية

ان الناس يروّضون البهائم ويهتمون بامر تربيتها وتدجينها ويعتنون بالازهار وبمختلف النبات والاشجار ويسهرون على نموها وتحسينها . أما الانسان فمن يعتني بامر تثقيفه غير الانسان .

فعلينا ان نهتم بامر تثقيف بعضنا بعضاً وان نتعاون على كبح جماح اهوائنا مهما كلفنا الامر من مشقة وجهود وتضحية وان يعلّم كل منا ابناء محيطه ما يعلمه ويتعلم منهم ما لا يعلمه .

وما ادراك ان العناية الالهية القت على عاتقك هذا الرجل الشاذ لاجل استئصال شأفة شذوذه وترويضه على الفضائل والخلق المتين .

فاذا لم يصطدم الخير بالشر فلا تتقدم الانسانية في طريق الفضائل .

ولهذا السبب أعزو الفضل كل الفضل لمن يمتزج بالاشرار ويخالطهم ولا ينفك يعالجهم بالحسنى متحملاً شرورهم وآثامهم الى ان يفتح بوجوههم مسالك الخير .

أما اولئك الذين يعتقدون بنفوسهم أخياراً بمجرد ابتعادهم

عن الشر وانقطاعهم عن الناس فينزوون في عقر دورهم هاربين من المجتمع الانساني ومن تحمل متاعبه ومعالجة نقائصه فهم من كل الوجوه يشبهون الاغنياء البخلاء الذين يضنون على الناس بفضلات خيراتهم ولا ينفعون أحداً في مالهم.

هكذا هم لا ينفعون احداً في انزوائهم.

****

ان المرضى لا يطرحون خارجاً مهما كانوا عالة عَلَى ذويهم أو على الانسانية بل يداوون ويعاملون بالرفق والصبر ويعالجون بشتى الوسائل إلى أن يبرأوا أو يموتوا.

هكذا ذوو العاهات وسيئو الاخلاق والصفات هم مرضى أيضاً. يجب أن لا نطرحهم خارجاً مهما كانت وطأة عاهاتهم وشذوذهم ثقيلة عَلَى أهلهم أو على المجتمع الانساني. فما علينا إلا أن نحسن معاملتهم ونترفق بهم ونهتم بامر معالجتهم الى النهاية.

فكم عليلٍ تسوء أخلاقه من جراء العلة فيتأفف بلا سبب موجب للتأفف ويشتم بلا داع للشتم ويذم المتولجين بامرة مهما خدموه واعتنوا به ويتحامل حتى على ابويه وزوجته وأولاده ورهطه الادنين الذين يسهرون على راحته ويضحون بكل شيء في سبيله.

فهل يجول بخاطر أحد منهم أن يؤآخذه على شتمه وذمه أو يمتنع عن معالجته وحسن معاملته ؟

لا ، لأن كلاً منهم يعلم حق العلم أنه عليل متوتر الاعصاب يتطلب معالجة لا عذلاً وشفقة لا عدلاً .

هكذا عليل الخلق ، فهو يتطلب حسن المعالجة لا اللوم ، والشفقة لا العدالة .

ليلى — اني موقنة ايها الحكيم ان لا امرأة تتحمل الاذى الذي تحملته فلو كان زوجي يحمل علة خلقية واحدة لتحملتها بلا مضض وسعيت جهدي لمعالجته بشتى الوسائل . لكنه لسوء الحظ رجل موبوء بالمثالب ومتمرّغ بكل المعايب .

فماذا اداوي وماذا اعالج !

لقد ورث عن والديه ثروة طائلة بدّد اكثرها في الحانات وفي دور المقامرة والفحش .

كنت سابقاً أعزو طيشه وخلاعته الى هوَس الشباب . وكنت امنّي النفس بانه ولا شك سيرعوي عن غيه . أما اليوم فقد بدا لي انه كلما تقدم سناً زاد نقصاً وكلما خسر مالاً زاد تهتكاً وسكراً . ويا ليته ينتبه لحاله ليحرص على القليل الباقي لديه تأميناً لحياته وحياة عيلته .

فاذا كنت حتى الان اكظم نفسي واتحمل فظاظة طباعه وضربه ومعاملته الشائنة فانا واثقة انني في الغد لا أقدر أن اتحمّل فوقها الحاجة والعسر وأرى بأم عيني اولادي يتضورون جوعاً .

ولو كان زوجي بوسعه أن يشتغل اذا خسر ماله ويقوم بأود عيلته لهان الامر . لكنه شأن كل ابناء الاغنياء لا يعرف عند مسيس الحاجة ان يكسب رزقه بعرق جبينه لأنه لا يحسن عملاً ولا مهنة .

لقد كنت محسودة عندما تزوجته وكنت كلما التقيت برفيقاتي يقلن لي : نهنّئكِ بحسن حظكِ . لقد اتمّها الله عليك ومنحك زوجاً شاباً جميلاً وافر الثروة والجاه . فانعمي بماله وجاهه وجماله واذكري رفيقاتك بالخير وادعي لهنّ بحسن الحظ .

وها أنا الآن ايها الحكيم تلك المرأة المحسودة من رفيقاتها أتعس خلق الله في حياتها . لانني منذ اقتراني به لم أتذوّق مرة واحدة ذلك النعيم الذي أُحسد عليه .

الحكيم — يا ليلى : ان معظم الناس يحكمون على ظواهر الامور لا على بواطنها لأنهم مولعون بالاباطيل والترّهات . ولهذا السبب نراهم يحسدون الاغنياء على ثرائهم والموظفين على وظائفهم وذوي الالقاب الفخمة على القابهم لاعتقادهم انهم اسمى منهم مقاماً

واكثر منهم سعادة وحظاً .

حالة كونهم لو تفقدوا محيطهم وسبروا غور حياتهم وبيئاتهم وتبيّنوا كثرة مشاكلهم الاجتماعية والادبيـة لرأوا معظمهم لا يعرفون للسعادة معنىً وربمـا كان بعضهم يستحقون الشفقة لا الحسد .

لكن الناس قلّما ينظرون الى أبعد من انوفهم وهـذا هو سبب شقائهم وتعسهم .

فهم لا يفقهون بل لا يريدون ان يفقهوا — ان لا مجد في الملك — ولا سعادة في القصور الشاهقة — ولا في الرياش الفاخرة — ولا في الخيول المطهمة — ولا في كثرة الخـدم والحشم — ولا في تصدر المجالس والمنتديات .

ان المجد الصحيح هو مجد الحياة النقية الطامحة الى اكتساب العلم والمعرفة . والسعادة الحقيقية هي سعادة النفس التوّاقة الى الفضيلة والبر والى مجابهة النوائب ومحاربة الشوائب .

اني ارثي لحالة الاغنياء المستعبدين لشهواتهم واموالهم واشفق على الحكام الخانعين تجاه نفوسهم ورؤسائهم والمستبدين بموظفيهم . هؤلاء يتبجحون انهم يحكمون الامة بمضاء حزمهم وعزمهم ويضبطون بفضل اقتدارهم ومعارفهم دوائرها الواسعة حالة كونهم

يعجزون ان يحكموا ذواتهم وان يضبطوا دوائر نفوسهم الضيقة ومن لا يضبط ذاته فكيف يضبط دوائر الأمم ومن لا يعرف ان يحكم نفسه فكيف يحكم الناس ؟

ان البشر لم يصلوا بعد الى معرفة الحقيقة المجردة . حقيقة معرفة ذواتهم — وحقيقة وجودهم ووجدانهم .

انهم يتخبطون في معترك الحياة خبط عشواء — يتخبطون في معتقداتهم وشرائعهم وفي دساتير حكوماتهم المسنونة على الجشع وحب الأثرة ويتسكعون في دياجير سياساتهم القائمة على الدهاء والمصانعة لا على الصراحة والاخاء الانساني .

ان معظم الذين حكموا الناس في العصور الغابرة ولا يزالون يحكمونها في هذا العصر الذي يدعى عصر النور والمدنية والعلم والعرفان هم اولئك الرجال الدهاة الفاقدو الشعور والوجدان الذين يتسلطون على رقاب العباد بقوة السيف أو بقوة التدجيل والترهات لا بقوة الحق والحرية والمساواة .

ان عصر الحق لم تبزغ شمسه على الناس كي ينظر بعضهم الى بعض نظر محبة وعدل واخاء . لا نظر حقد وجشع ورياء .

يا ليلى : اذا كنت تشكين الحيف والظلم في حياتك المنزلية وفي معاملة زوجك الجائرة فلست وحدك الشاكية في هذا

العصر ·

ان معظم الناس يشكون من ظلم حكامهم وسياسة حكوماتهم الباطلة كما ان كل امرىء منهم يشكو ايضاً « كما تشكين » حيفاً او غبناً في ناحية من نواحي حياته او في امر من امور دنياه ·

لقد خُدعت في امر زواجك كما ينخدع معظم البشر في امورهم وغرّتك مظاهر الغنى والجاه التي كان يتمتع بها زوجك فرضيت به قريناً دون ان تحفلي بدرس صفاته واخلاقه وان تتبيني مقدار رجولته وحقيقة ادراكه

والغرور الذي كان سبب شقائك هو دائماً سبب شقاء الناس وبلاياهم ·

ان رفيقاتك اللواتي طالما حسدنك على زواجك هنّ اليوم مثلك بالامس ما برحن مغرورات بالاباطيل وبمظاهر الثروة والجاه ·

فلو تفقدن حياتك الزوجية وعرفن ما تقاسينه من العذاب والالم بجانب زوجك الذي يحسدنك عليه · لكن يشفقن عليك ويتعلّمن من تجاربك القاسية هذه الامثولة الرائعة ·

ان زوجاً فقيراً لكنه عامل شريف يكسب رزقه بعرق جبينه

ويعيش بين عيلته بامنٍ وسلام هو خير من عشرات الازواج الاغنياء المتهتكين ومن الحكام المستبدين الفاجرين .

ليلى — انا الجانية على نفسي ايها الحكيم لأنني لم افكر عند زواجي الاّ بالجاه والمال والجمال مع ان صديقة من صديقات بيتنا المخلصات انذرتني قبل اقتراني بزوجي كما انذرت والديّ على مسمعي بالاّ اقع في حبائل هذا الرجل مهما كان غنياً واسع الجاه والنفوذ لأنه غير محمود السيرة والسريرة . فلم انتصح كما ان ابويّ لم ينتصحا ايضاً لأنهما كانا مثلي مغرورين بجاهه وماله وجماله .

والآن مهما عنفت نفسي اولمت والديّ فلا فائدة لي من وراء ذلك . ولهذا السبب جئتك ايها الحكيم انشد راحةً لا لوماً وفرجاً لا تعنيفاً .

لقد عشت حتى الآن الى جانب زوجي ما ينيف على اثني عشر عاماً كنت في خلالها يعلم الله صابرة صبر ايوب على مساوئه وشذوذه ومتحملة من سوء خلقه وفظاظة طباعه ما لا يقدر احد على احتماله .

ولما ايقنت ان لا امل لي باصلاحه ولا راحة بقربه اخذت افكر في هجره . وعزمت مراراً على ذلك . لكن اولادي كانوا دائماً يحولونني عن عزمي لانني لا أستطيع مغادرتهم ولا

أن أعيش بدونهم .

لقد عوّلت أن أهرب بهم الى حيث تلقيني يدُ الاقدار ولم أخف من تحصيل معاشهم لأنني اينما وجدت أقدر أن اشتغل وأقوم بحاجاتهم . لكني أخاف هذه الشريعة الظالمة أن تنزعهم مني وتردّهم الى حضن أبيهم القاسي الغاشم فينتقم منهم متى رأى نفسه عاجزاً عن الانتقام مني .

هذه هي الفكرة الوحيدة التي أبقتني حتى الآن في حظيرته .

ويزداد شجني عندما افكر ببعض النساء الخالعات اللواتي يصرفن أموال أزواجهن بلا شفقة ولا رحمة ولا يهتممن بامر تربية أولادهن ولا بتدبير شؤون بيوتهن ولا يكترثن الاّ بتجميل وجوههن وبهرجة لباسهن كما انه لا يحلو لهن الاّ ارتياد الملاهي والمراقص وارتكاب الموبقات .

ومع كل ما هنّ عليه من التبذير والاباحة فاني اراهنّ الآمرات الناهيات في بيوتهنّ الموفورات الحب والكرامة من أزواجهن . بينما المرأة الفاضلة الامينة المقتصدة الساهرة على شؤون بيتها وراحة رجلها وأولادها غير محبوبة ولا مكرّمة من بعلها ولا موفورة الراحة في بيتها ولا منشودة في المحافل والمراقص

هذا ما حداني على الاعتقاد بان الفضيلة لم تبق لها قيمة في العصر العشرين .

لقد حاولت مراراً ان اسلك سلوكاً شائناً ليس فقط نكاية بزوجي وانتقاماً لنفسي منه بل لأريه ايضاً انني متى شئت الزوغان فلا أعدم عشاقاً ينشدونني ويرتمون على قدميّ .

ولعله متى رآني هكذا منشودة تتولد الغيرة في صدره فتكسبني بعض محبته وعطفه .

وفضلاً عن ذلك ان الرجل الخليع الساقط لا يستحق الاّ امرأة مثله ساقطة خالعة .

فاذا كنت حتى الآن لم ازل مترددة عن ارتكاب المعاصي فليس ذلك خوفاً من زوجي ولا محافظة على شرفه وكرامته لأنه ليس من اهل الشرف والكرامة . بل لانني منذ نشأتي لم أتعوّد الاباحة ويعزّ عليّ الآن ان انتهتك واخسر حسن سمعتي وطيب احدوثتي

لكنه اذا ظل مثابراً على خيانتي وظلمي وسوء معاملتي فانه يقودني حتماً الى ذلك وربما الى افظع من ذلك .

لانني لست جماداً كي لا اشعر ولا احس ولا احب ولا اغار ولا ابغض ولا انتقم .

الحكيم — يا ليلى : ان اعترافك بخطأك وغرورك لما يجعلك ان

تستفيدي من تجارب الحياة ومشاكلها .

ان الذي يقرّ بالخطأ يهمّه ان يتجنّب الخطأ والذي يعترف بالغرور يسعى ليبتعد عن الغرور .

تقولين انك تنشدين راحةً لا لوماً وفرجاً لا تعنيفاً . فانا لست من اللائمين ولا من المعنّفين والمجذين المعاقبة بالقسوة في هذه الحياة ولا من المنذرين بنار الجحيم بعد الموت .

ان شريعتي هي شريعة محبة وعفو .

لا شريعة بغض وعقاب .

ولهذا السبب احبّ ولا ابغض وأعفو ولا أنتقم لأنني أعلم حق العلم ان الخير هو نتيجة سلامة الجسم والروح كما ان الشر هو نتيجة علة من عللها .

فمكافحة الاشرار تقوم عندي بمداواة عللهم ، لا بشدة عقابهم .

****

وأحب المؤمنين والمشككين لأن الايمان يجبر النفوس الكسيرة ويشدّد القلوب الضعيفة . والشك يثير الهمم والعزائم ويزيد الرغبة والطموح لاكتشاف مجاهل الكون ودرس حقائق الحياة .

لا مكان في جسدي لغير المحبة التي تغمر وجودي ووجداني فكما احب القريب احب الغريب — وكما احب النور احب الظلام — وكما احب الحضارة احب البداوة — وكما اعشق النضارة اعشق الذبول — وكما احب الحياة احب الموت .

فمن يتفقد كتاب حياتي لا يقرأ في صفحاته غير الحب ..

****

انني أعلم جيداً ان بعض علل النفس غير قابلة الشفاء كبعض علل الجسم بل لم تصل بعد مدارك الانسان ومعارفه الى شفائها .

فو الحالة هذه لا قِبل للناس الذين يعجزون عن التغلب عليها الاّ ان يتجنبوا ما استطاعوا الوقوع في حمأتها لا ان يبغضوا او ينتقموا من اولئك المرضى المساكين الرازحين تحت اثقالها .

يا ليلى : تقولين انك عوّلت مراراً على هجر زوجك الذي عجزت عن شفاء علله النفسانية تجنباً من كثرة مشاكله ومن الوقوع في حمأة مساوئه . لكنك تخافين الشريعة الظالمة التي تحرمك بنيك حتى يشبّوا عن طوقهم وتبقيهم في حوزة أبيهم القاسي الغاشم الذي لا يحسن تربيتهم ولا يعتني بهم .

وهم احبّ اليك من نفسك فلا تطيقين فراقهم ولا تتحملين العيش الى جانب زوجك الاثيم .

انكِ لست اول ضحيةً من ضحايا الشرائع . فالارض من كثرة الظلم والجور تتمخض كل يوم بالضحايا .

لكن اللوم كل اللوم ليس على الشرائع الجائرة بل على الجنس البشري الذي ابتدعها . فهي عنوان جشعه وظلمه ودليل جهله واثمه .

فمتى تحوّل عن عقليته الجاهلة الفاسدة تتحول شرائعه وتتعدل اديانه ودساتيره .

اما اليوم فنحن نعيش في عصر جاهل لا يعلم فيه المشترعون ما هو الناموس ! ولا يفقه القضاة ما هو الحق ! ولا الكهان ما هو الدين !.

* * * *

ومهما جارت الشرائع و كثرت الشرور والمآثم فلا تعتقدي ان الفضيلة تضيع قيمتها ولا تحكمي عليها بالموت حكماً قاطعاً لمجرد نظرك بعض النساء الفاضلات مهضومات الحق في بيوتهن او في الهيئة الاجتماعية .

فاذا كان بعض الناس يتوددون للخالعات في المجالس والمنتديات ويكرمون وفادتهنّ فلا تنخدعي بمظاهرهم الباطلة التي تعبّر عن شهواتهم لا عن حقائقهم .

انهم في قلوبهم يقدسون الفضيلة ويحتقرون الرذيلة . ولهذا السبب ان النساء الفاضلات لا يخسرن مطلقاً قيمتهن الادبية لا تجاه الناس ولا بأعين ازواجهن مهما اساءوا معاملتهن وكانوا متهتكين . وهكذا الرجال الافاضل مهما كانت نساؤهم قاهرات او عاهرات فلا يُغمط فضلهم .

****

اراكِ تعتقدين ان زوجك سيجرّك حتماً الى ارتكاب الاثم والخيانة الزوجية اذا ظل مثابراً على سلوكه الشائن وعلى سوء معاملتكِ .

ان الضعف الانساني يحلل لك ان تبادلي الشر بالشر لأنك بشر من لحم ودم تغارين وتشعرين وتحبين وتبغضين . لكنك تقدرين بقوة الارادة والتضحية ان تحوّلي عوامل الغيرة والشعور والحب والبغض الى ما يؤول لخيرك وخير الناس .

أليست الغيرة في البر والشعور مع البائس والحب للقريب والغريب والبغض للخطيئة لا للخاطىء كلها فضائل سامية تفيدك وتفيد المجتمع الانساني ؟

اما الغيرة في ارتكاب الاثم والحب الشاذ والشعور بالانتقام والبغض لكل من يسيء الينا او يعترضنا او يحول دون اتمام رغباتنا

فهي بنظري غيرة طائشة تعود بنا الى الحياة الوحشية لانها تقوّي فينا الغرائز الهمجية التي تجعلنا اقرب الى الحيوان منّا الى الانسان الراقي ·

انني اعلم جيداً انكِ تحمّلت من زوجك ما لا يتحمله أحد· لكنني على الرغم من ذلك أرجو منك حباً بالتضحية وانكار الذات أن لا تفقدي نعمة الصبر قبل أن تجربي كل الوسائل لأصلاحه لعلك تعثرين على وسيلة ناجعة ترده الى صوابه ·

يا ليلى : ان الناس مختلفو الطباع وألامزجة فمنهم من كان من طبيعتــه فاضلاً أو شريراً في حالتي اليسر والعسر · ومنهم من يبطره الغنى ويفسده المال · ومنهم من يقوده الفقر الى الشرّ والغنى الى البرّ · ومنهم من يؤدبه الفقر وتعلّمه التجارب ·

وما أدراكِ ان زوجك اذا خسر ماله وأمسى فقيراً لا يؤدبه فقره ويصبح رجلاً نافعاً لنفسه ولكِ ولاولادك ·

فكما ان الاشرار أبقى لهم وللناس بان يكونوا مجرّدين من اسلحتهم هكذا الاغنياء الفاسقون أبقى لهم وللانسانية بأن يتجردوا من أموالهم ·

اذهبي يا ليلى الى زوجك وعامليه بالحكمة والرفق لا بالعنت والنقد اللاذع · وأضربي صفحاً عن خسرانه المال وعن مساوئه

الماضية لعله من الذين يؤدبهم الفقر ويردهم الى الصراط القويم .

واذا خاب سعيك وظل عابثاً في فقره كما في غناه فعندئذ احبذ الطلاق ولا احبذ الخيانة .

اذهبي اليه الآن — اذهبي متسلحة بالحكمة والصبر ومتأملة بالخير لا بالويل . وعودي اليّ بعد حينٍ لأعلم ماذا حدث لكِ وماذا جدّ عليك .

الفصل الثالث

الحكيم يلتقي بليلى في سهرة راقصة

في احد فنادق بيروت

مضت ستة اشهر دون ان يرى الحكيم ليلى فظن انها ولا شك حصلت على بعض الراحة في معيشتها البيتية . وابتدأت تتفاهم وزوجها تفاهماً مقروناً بروح السلام والوئام .

وفي مساء يوم اقامت بعض السيدات البيروتيات حفلة راقصة في فندق سان جورج الجميل القائم على شاطئ بيروت الغربي تجاه ميناء الحصن «والكورنيش» ينفق ريعها لمشروع خيري .

وما اكثر المشاريع الخيرية في هذه المدينة .

فدعي اليها الحكيم وذهب مدفوعاً بعاملين عامل الغيرة على مشاريع البر وعامل الرغبة في استطلاع شؤون المجتمع الانساني ومراقبة حسناته وسيئاته .

ومن لا يخوض ميادين الاجتماع لا يتسنّى له معرفة امراض

الاجتماع ليقوم بمكافحة نقائصه وعلله .

هناك شاهد الحكيم معظم رجال الحكومتين اللبنانية والافرنسية واعيان البلاد وصفوة تجارها وادبائها ومفكريها .

جاء معظمهم برفقة عقيلاتهم وفتياتهم . وكانوا كلهم رجالاً ونساءً يلبسون لباساً رسمياً لا بد منه في مثل هذه السهرة الارستوقراطية . ولم يشذّ عن هذه القاعدة الاّ اولئك الذين كانت صدورهم تزدان بشاراتهم العسكرية اللامعة وبشارات جوقة الشرف .

ولما دقت الساعة العاشرة ليلاً عزفت الموسيقى الغربية مؤذنة بافتتاح الحفلة .

فابتدأت حلقات الرقص على أنغام الجازبند الشجية .

فانتحى الحكيم ناحية وجلس يتأمل في سيول المدنية الغربية التي تدفقت على الشرق واكتسحت حضارته واستعبدت أهله .

وهذا بعض ما دوّنه في مذكراته عما لاحظه في تلك الحفلة الحافلة بالمع العائلات وبوجوه القوم وكبار الحكام الوطنيين والافرنج .

قال : لا جدال ان هذه الحفلة تمتاز بالابّهة والفخامة وبكثرة البذخ والتبذير والبهرجة والتأنق لأنها تجمع السلطات الثلاث

التي تحكم بني الانسان منذ أقدم العهود حتى الآن ·

ألا وهي سلطة الحكم وسلطة المال وسلطة الجمال ·

لقد شاهدت سلاطين الحكم وملوك المال يخاصرون سلطانات الجمال ويتودّدون اليهنّ وينحنون امامهنّ ورأيت بعضهم يلثمون انامليهنّ الناعمة كما سمعت البعض الآخر يغدقون عليهنّ آيات الثناء والاطراء ويشبّبون بظرفهنّ وجمالهن الفتان ·

لعمري ان سلطة الجمال كانت في تلك الليلة تفوق سلطتي الحكم والمال بقوة سلطانها لانها كانت اشد منهما وقعاً في الاعين واكثر منهما حكماً على القلوب· وكان الجميع يدينون لاوامرها ويخضعون لنواهيها ·

لم انبين في تلك الحفلة الحافلة اثراً عربياً لبنانياً في ارض لبنانية عربية ·

كانت الموسيقى كلها افرنجية كما كان الرقص افرنجياً ايضاً وكانت المشروبات المتعددة والمآكل المتنوعة والحلويات المختلفة والملابس الفاخرة والفندق وشكل بنائه وهندسته ونقوشه واثاثه ورياشه واصحابه وخدمه وحشمه حتى اللغة التي كان يتسامر بها المدعوون كلها كانت افرنجية بحتة · ولو لم اكن اسمع من حين الى آخر بعض الكلمات العربية التي كان يمزجها بعضهم في سياق

احاديثهم في لغة الافرنج لكنت تخيلت نفسي انني جالس في حفلة راقصة في باريس لا في بيروت .

فقلت في نفسي : ان المغلوب ليس فقط يخضع للغالب في قوانينه واحكامه بل يقلّده ايضاً في لغته وعاداته وحسناته وسيئاته كما يقلد الضعفاء الاقوياء والفقراء الاغنياء .

ان الناس من طبيعتهم يخضعون للقوة المسيطرة عليهم ويقتفون آثارها ويتلمسون خطواتها كأنّ القوة كلها حسنات والضعف كله سيئات .

لكن الرجل اللبيب المدرك حقيقة الحياة الاجتماعية والواقف عَلَى تواريخ الامم والشعوب والمدقق في اسباب نهضاتها وسقوطها يعلم تمام العلم ان القوة والضعف يتعادلان بالحسنات والسيئات .

فالامة الرشيدة هي الامة التي تسعى وراء اكتساب حسنات القوة دون ان تتخلّى عن حسنات الضعف . لأن التخلي عنها يضعف الامةَ القويةَ كما يزيد الضعيفة ضعفاً .

* ***

في تلك الليلة لعبت الشمبانيا دوراً خطيراً وكانت تشغل المقام الاول بين المشروبات الروحية لأنني كنت كيفما وجّهت نظري في قاعة الرقص الكبرى اراها موضوعة على اغلب الموائد

المنتشرة هناك . وكان يليها الوسكي مع السودا ثم الكونياك والكوكتيل والشرتراز والبندكتين وخلافهم .

اما النبيذ اللبناني والعرق اللبناني فلم ارَ لهما اثراً .

فقلت في نفسي : مسكين لبنان ، لا بل مسكين هذا الشرق العربي الذي لم يتخلَّ فقط عن استقلاله بل اخذ يتخلى عن ثروته وعاداته واخلاقه وتقاليد قومه .

ان معظم الشرقيين لا يعرفون فضيلة الاقتصاد ولا الوطنية الصحيحة . انهم ينفقون بلا حساب ويعيشون غير مبالين بوطنهم ولا محافظين على ثرواتهم وصناعاتهم ولا على نتاج ارضهم .

بينما الغربيون يعبدون اوطانهم ويحافظون على منتوجاتهم ولا يستوردون من ارض الاغيار الاَّ ما لا وجود له في بلادهم ويكتفون عند حلول الازمات بما هو موجود فيها .

فما بالنا لا نتعلم منهم هذه الفضائل كما نتعلم الرقص والاباحة؟

****

وفيما هو غائص في هذا التفكير وعيناه شاخصتان في اسراب المتخاصرين مرّت بجانبه غادة على جانب عظيم من الجمال والتجمّل تراقص شاباً انيقاً جذاباً تبدو في لحاظها كما في لحاظه علائم الحب المتبادل .

فقطعت عليه مجرى تفكيره لأنه اشتبه بمعرفتها فأخذ يسارقها النظر ويتفقد خطواتها ويتبيّن ملامحها الى ان تحقق انها ليلى .

رأى تلك المرأة التي كان يحسبها مثال الحشمة والأدب والظرف عارية الصدر والكتفين بارزة النهدين لابسة ثوباً حريرياً شفافاً لا يستر جسدها الاّ كما يستر الزجاج نور الشمس

وكانت كاحلة العينين شديدة التبرّج والخضاب يفوح من اردانها شذا الطيوب والمساحيق ومن لحاظها رائحة الحب والغرام .

اجل لقد شاهدها تناجي فتاها الذي كانت تراقصه مناجاة المولهين وتبسم له بسمات المتيّمين التي لا تخفى على أحد .

فقال في نفسه : أهذه ليلى التي عرفتها تقدّس الواجبات الزوجية وتقبّح الخيانة والتهتك ؟

أهذه ليلى الحكيمة الفاضلة التي كانت تئن من جور زوجها وعسفه ومن اباحته وسكره ؟

أهذه ليلى التي تحبّ اطفالها كنفسها وتضحّي بكل غالٍ ورخيص من اجلهم .

أهذه ليلى الوالدة الشفيق الحنون ؟

أهذه ليلى التي كانت تصرّح علانية بأنها تعبد الله واولادها

ولولاهم لما كانت تسا كن زوجها الخليع ؟

كيف تجرأت ان تترك اطفالها الذين هم بحاجة الى عنايتها طيلة هذه الليلة ؟ حالة كونها تعلم حق العلم ان زوجها لا يرجع الى البيت قبل منتصف الليل واذا بكر يوماً فلا يعود الا خمران لا يعي ولا يستوعي . ولا يتمكن من الاعتناء باطفاله !

أفلا تفكر ايضاً انه عندما لا يراها في البيت ربما تسوّل له نفسه الانتقام فيفتق له السكر بان يثأر من هؤلاء الاطفال الابرياء .

واطوار السكر من اطوار الجنون !

ماذا جرى لها اذن ؟ ومن غيرها وقسّى قلبها على فلذات كبدها ؟

هل وقعت بشرك الحب وعلقت هذا الشاب فملك فؤادها وحواسها وعواطفها ؟

وهل عاطفة العشق اقوى من عاطفة الامومة ؟ اجل كما ان السكر يفقد المرء توازنه العقلي هكذا العشق يفقده العاطفة الابوية .

فكم امرأة تضحي ببنيها على مذبح غرامها وكم امرئ يضحي بهم على مذبح شهواته ؟

ثم تأمل الحكيم في الجموع الغفيرة التي كانت تتزاحم على الشراب والرقص في تلك القاعة الفسيحة . وقال في نفسه :

كم ههنا من امّ تتوخ لاهيةً عن بنيها و كم من ابٍ يتخطّر لاهياً عن واجباته !

****

دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل و كانت الخمرة قد لعبت برؤوس معظم المتخاصرين الذين كانت اصواتهم كارجلهم ولحاظهم وسائر اعضائهم تتبع انغام « الجازبند » . وكانت ليلى لا تزال ساهرة تراقص فتاها وتداعبه وتشاركه بالمرح والغناء واللهو والشراب وهي لا تبالي كأنها ليست ذات بعلٍ ولا امّ اطفالٍ يحتاجون الى عنايتها .

و كانت عندما تمرّ من امامي تغضّ طرفها عني دون ان تكلمني كأن ليس بيني وبينها معرفة او كأنها تريد ان تتكتم عني كي لا اعرفها لأنها لم تتعوّد سابقاً ان تسلك هذه الطريق فأبى عليها حياؤها بان اشاهدها على تلك الحالة المريبة . وهي لم تفقد حياءها بعد .

ومن يفقد حياءه يفقد كل شيء .

وقبل ان انصرف فكّرت بمخاطبتها فتريّثت قليلا الى ان

مرّت بجانبي . فهمست باذنها قائلاً : ارعوي يا ليلى واذكري صغارك وامر نفسك واقبلي نصيحة رجل لا يودّ لك الاّ الخير .

فلما سمعت كلامي ملكها الخجل فجمدت مكانها دون ان تنبس ببنت شفة وذهب عنها بسطها وانتقلت بلحظة من المرح واللهو الى الاضطراب وقلق البال .

فشعر رفيقها بانقلابها السريع وقام يلاطفها ويستعطفها مغدقاً عليها آيات حبه وشغفه الى ان سرّي عنها قليلاً ثم اخذها بذراعيه وبعدا عني .

فتركتهما ورجعت الى البيت .

الفصل الرابع

سلمى تزور الحكيم وتنص عليه في سياق حديثها بعض شذوذ جارتها ليلى وتستنجده لانقاذها من المفاسد

وبعد تلك السهرة جال في خاطر الحكيم ان ليلى لا بد ان تزوره قريباً معترفة اليه بخطإها وطالبةً معونته الادبية لارشادها وصيانتها من المفاسد .

لكنه بعد مرور بضعة اسابيع دون ان يراها خاب ظنه بها

وفي صباح يوم بينما كان يتمشى في حديقة بيته المشرفة على الجادة العمومية ابصر سلمى آتية لزيارته . فرحّب بها كثيراً . ثم اخذا يتمشيان معاً بين الازهار والرياحين .

فقالت سلمى : يظهر لي انك راغب في حديقتك كل الرغبة لأني ارقب شدّة اعتنائك بها ظاهراً في اتقانها وتنوع ازهارها الجميلة التي تبهج القلب والبصر .

فقال لها الحكيم : اجل يا سلمى انني لست فقط راغباً

بحديقتي بل احبها حباً جماً واحب اشجارها وازهارها واعشابها ·
واحب الطيور والعصافير التي تتنقل على افنانها والنحل الذي يجني عسله من اقمارها والهوام والحشرات التي تقتات من ترابها ومن اعشابها ·

واحب النمل السارح في ارجائها واحب مواتها وكل حياة تنبجس منها وتنمو وتذبل فيها · لأنني اصرف كل يوم بعض وقتي متنقلاً بين خمائلها ومستريحاً تحت ظلالها ·

انها والحق يقال مكان نزهتي ودرسي وتأملي · ولا اغالي اذا قلت لك انني اجمع فيها النقيضين فارتاح من عناء العمل بينما يداي تعملان بلا انقطاع في اغراسها وذهني يشتغل في تفقد نباتها ·

تعالي معي الآن وانظري القرنفل الجميل والورود المتنوعة الذكية والبنفسج والسوسن والرياحين المختلفة المعطرة · أفلا ينشرح صدرك لمنظرها الفتان ؟

اقطفي ما شئت منها واشكري العناية على خلقها ·

ان حديقتي يا سلمى هي عندي بمثابة عالم صغير تشغل عقلي وجسدي · فكلما جلت فيها ترينني اتفقد جمادها وحيوانها ونباتها متعطشاً الى معرفة ما يحدث ويجري في كل نفحة من نفحاتها ·

فأشعر كأنني اتفقد المعمور باسره .

وليست حديقتي وحدها هي عالم صغير في نظري بل انتِ وانا و كل كائن حي مهما كان حقيراً هو عالم صغير ايضاً فمن سبر غوره وخبر سرّ كيانه وتفقد خفاياه يتفقد جميع اسرار الكون .

تعالي معي وادرسي قليلاً في كتاب الطبيعة . انه لعمري كتاب مدهش رائع يصرف العالم المدقق عمره ولا يستوعب صفحة من صفحاته .

فكلما شئتِ ان تتلقني امثولة مفيدة في الحياة او ان تتفقدي سراً من اسرار الوجود اقرإي في هذا الكتاب العجيب تري كل ما يلذّك ويفيدك .

ان كتاب الطبيعة يا سلمى هو كتاب الصراحة والجرأة والحقائق العارية فترين فيه الحياة الدنيا كما هي لا كما يصوّرها لكِ رجال الخيال والاوهام .

ولهذا السبب انكِ لا تجدين اثراً للدهاء والمصانعة في كتاب الطبيعة ولا تلمسين فيه السياسة الكاذبة والاضاليل الملفّقة ولا الاعتقادات السخيفة والشرائع المعقّدة .

انه كتاب الواقع وكفى .

واما كتب الناس التي ملأت الكون في هذا العصر وتكدست بالملايين في دور العلم والمكاتب فمعظمها مصطنع يدل على سخافة منشئيها وهرائهم وعلى ضلالهم وجهلهم .

الحق اقول لك لا يروقني منها الاَّ النزر اليسير المأخوذ عن كتاب الطبيعة وهو وحده بنظري الكتاب الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة .

تعالي معي وتأملي في هذه الوردة البيضاء الجميلة الممتلئة من الاقمار البديعة والاكمام الباسمة للحياة .

لقد كانت منذ ايام عارية من الورق والزهر فاين كانت هذه الاوراق والازهار ؟

انها ولا شك كانت تتمخَّض في احشاء الوردة كما كنا مثلها نتمخض في احشاء امهاتنا . ومرَّت قبل بروزها على كل الاطوار التي مررنا عليها قبل ولادتنا .

وستعيش وتموت مثلنا لكنها اقصر عمراً منا كما نحن اقصر اعماراً من غيرنا من احياء الطبيعة .

فاذا جئنا الان نتساءل اين كنا وكانت هذه الازهار قبل ان تتكوَّن في احشاء الامهات ؟ ان العلم الذي وصلنا اليه يجيبنا اننا كنا اجساماً بسيطة مؤلفة من ذرات وخلايا وكهارب قابلة

التطور والاندماج . وقد تألفت منها جميع احياء الارض المختلفة الاشكال والانواع .

ولكن اذا سألنا كيف تولدت هذه الخلايا والكهارب وما هو مصدر حياتها ؟

فماذا يجيبنا العلم ؟

ان العلم لا يزال عاجزاً عن ادراك هذه الحقيقة الغامضة ولهذا السبب ما برح العقل البشري حتى الآن يتكهّن تكهّناً للوصول الى معرفتها .

لأن كل امرىء له ملء الحق بان ينشد الحقيقة الضائعة وان يتخيلها في ذهنه كما يشاء ويتكهن في سرّ وجودها كما يوحي اليه عقله . لان الحقائق المجهولة هي ميدان لكل مفكر وباحث . ولا يظفر بها العقل البشري الاّ عن طريق التكهنات المختلفة والمباحث الجريئة .

ان باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه في حقل هذا الكون الواسع فما علينا الاّ ان نثابر على الدرس والبحث لنزداد علماً ومعرفةً في حقيقة الحياة وحلّ اسرارها الغامضة وقضاياها المعقدة ؟

ومن الخطأ الفادح والجهل المطبق بأن نعتقد انه يوجد شريعة سماوية او ارضية لها ملء الحق بان تقيد افكارنا وتوصد

باب البحث والمعرفة في وجوهنا .

ربما اكون قد ازعجتك يا سلمى بحديثي الجاف عن الطبيعة واسرارها . لأن كثرة الكلام في هـذا الموضوع لمن الامور المزعجة المملّة لمعظم الرجال فكيف للسيدات . فأستميحك عذراً عما سببّته لك من السآمة وثقي انني دائماً عندما اكون في حضرة الناس احاول جهدي لاخفاء هذه النزعة الفلسفية التي تغمر دماغي كي لا اضجرهم بحديثي . لكنها في بعض الاحيان تثور عليّ كما ثارت الآن فتغلبني على امري وتملك لبّي ومشاعري وتنفذ الى قرارة ذهني وتتسلط على حواسي ومخيلتي وتستأثر بعقلي ولساني فلا اعود افكر الاّ من وراء الهامها ولا اتحدث الاّ من نتـاج وحيها . وهذا ما حدث لي الآن

سلمى — انني جد مغتبطة بحديثك اللذيذ المفعم بالحكمة والفائدة . ولا اغالي اذا قلت لك انني كلّما رنّ صوتك في اذني تنطبع كل كلمة من كلامك في ذهني فاشعر عندما تحدثني أنّ حـديثاً علوياً نزل عليّ كما نزل الوحي على الانبياء .

الحكيم — لم اكلمك بلغة الوحي والنبوّة يا سلمى فانا اجهل هذه اللغة ولم احدثك حديثاً علوياً بل حديثاً أرضياً لأنني لا ازال عاجزاً عن ادراك حقائق الملاء الادنى فكيف بالملاء الاعلى .

لقد قيل الويل لمن تأتي الشكوك عن يده . اما انا فأقول:
الويل لمن يعلّم الناس ما لا يعلمه ويجعلهم يؤمنون بما لا يؤمن . ويعتقدون بما لا يعتقد .

الويل للذين يدعون الى الفضيلة ويقدسون الرذيلة في قلوبهم
والويل كل الويل للمرائين والمخاتلين والمتاجرين بالله وبعباده
والآن مالنا وهذا الحديث فلندع جانباً اباطيل الناس وخزعبلاتهم وتعالي معي لنجلس على هذا المقعد الخشبي القائم تحت ظلال هذه السنديانة الجبارة .

أما شعرت بالتعب من كثرة الوقوف والمشي ؟

تعالي ومتعي الطرف بمنظرها الفتان . وتأملي في الطيور والعصافير المتنقلة على افنانها . والهوام والحشرات السارحة على اغصانها .

تعالي اليها انها لا تردّ طالب راحة ولا ناشد غذاء .

اجل يا سلمى ان الاشجار جميعها تلقي علينا امثولة رائعة في الحلم والكرم وحبّ التضحية لأنها كلها لا تحجب ظلها ولا خيرها عن أحد . بينما معظم الناس لا يكتفون بأن يحجبوا خيراتهم عن سواهم بل يسعون لأيقاع الضرر بغيرهم .

تعالي وتمتعي بظلها المنعش ونسيمها العليل .

وبعد ان جلسا هناك قال لها الحكيم :

كيف حالك يا سلمى وحال زوجك ؟

قالت : اننا بخير وسعادة ايها الحكيم .

فأجابها : انني مبتهج جد الابتهاج بحياتكِ الزوجية الهنيئة التي تدل على طيب عنصرك وعنصر زوجك الكريم المزدان بحسن الخلق وألادب الجم كما تدل أيضاً على كمال صفاتك ورواء ظرفك وجمال نفسك .

سلمى — اجل ايها الحكيم انني سعيدة بزواجي وعائشة على اتمّ وفاق برفقة الرجل الذي اختصتني به العناية . لأن المحبة التي هي اساس السعادة الزوجية متبادلة بيننا والاخلاق متقاربة ايضاً .

وكلٌّ منا يعلم ما له وما عليه فلا يتعدى حقوقه كما انه لا يتوانى بأمر واجباته . فلا شيء يدعو الى الخصام وسوء التفاهم فيما بيننا .

ومما زاد عيشنا صفاءً وملأ حياتنا سعادةً وهناءً طفل جميل رزقناه منذ ستة اشهر فهو والحق يقال منحة من منح الطبيعة التي لا تعدلها كنوز الارض

فكلما ضممته الى صدري وارضعته اشعر أنني ضممت الدنيا باسرها . وكلما تصبّحت بوجهه المشرق وسمعت مناغاته الملائكية

شاهدت وابتساماته العلوية اشعر أنني ملكت السعادتين سعادة الدنيا والآخرة ·

انه كثير الشبه بابيه في حركاته وسكناته وتقاطيع وجهه ويبدو لي انه سيكون مثله ايضاً بحسن خلقه وهناءة عيشه ورقة طباعه · لأنه كثير الهدوء والابتسام لا يبكي الاّ نادراً وذلك عندما اسهو عن ميعاد رضاعته · فعندئذ يعبر عن شعوره بالجوع بلغة البكاء التي لا يحسن غيرها ·

هو سلوى امه وحشاشتها وأمل أبيه وفلذة كبده ·

الحكيم — ان الاطفال ياسلمي هم بهجة الحياة وربيع القلوب وملائكة الارض وجنانها ·

هم الصلة المتينة بين الازواج والعروة الوثقى في تأسيس العائلة البشرية والرابطة الوحيدة التي تربط حاضر الجنس البشري بماضيه وتؤمن مستقبله ·

فلا شيء في هذا الوجود ادعى للغبطة من مشاهدة الاطفال عَلَى اذرع آبائهم أو على صدور امهاتهم · ولا شيء ابهج من مرآهم يتناغون ويتكلمون ويصخبون ويلعبون ·

فمن يكره الاطفال يكره البشر ويكره الله فجبلة البشر في صدورهم ونفحة الله في جباههم ·

وقد أحسن الشاعر العربي بقوله :

وانما أولادنا بعدنا اكبادنا تمشي على الارض

ان عينيّ تحنّ لمرأى الاطفال وقلبي يرقص طرباً عند ما الاعبهم واسمع اصواتهم الساحرة ونفسي تتعظ عندما اراهم يغضبون ويرضون في لحظة واحدة كما يبكون ويبتسمون في آن واحد .

انهم سريعو النسيان لا يحملون في قلوبهم بغضاً ولا انتقاماً .

وما أجمل النسيان الذي يبرأ القلب من داء حقده وبغضه .

وهم ايضاً انقياء الضمير وطاهرو القلب لا يعبّرون عن شعورهم الاّ بمنطق البساطة البريئة .

وما أجمل هذه البساطة الصادرة عن الطهارة والنقاوة .

انهم صغار ضعفاء يحتاجون الى كثير من العناية والالتفات ولا ينشأون بدون معوان يعولهم ويقوم باودهم .

فمن اهمّ واجبات الاباء والامهات واجب الاعتناء باطفالهم والسهر على تربيتهم . فهو في نظري واجب لازب من اقدس واجبات الانسان على الارض .

فمن يهمل هذه الواجبات يرتكب جناية لا تغتفر تجاه الانسانية .

سلمى — انني ارتأي رأيك ايها الحكيم واتعجّب كيف يقدر بعض

الآباء والامهات أن يهملوا أمر اطفالهم . بينما أنا أشعر ان واجباتي نحو طفلي هي قبل كل الواجبات .

كيف لا وهو قطعة من نفسي بل هو اعزّ من نفسي فلا يهنأ لي عيش الاّ بهنائه . ولا تصفو حياتي الاّ بصفاء حياته .

وهكذا زوجي يشعر شعوري فلا شيء عنده اعزّ من ولده ولا أمر يهمه في هذا الوجود اكثر من امره .

اما جارتي ليلى فقد كانت فيما مضى تهتمّ بامر اطفالها وتعتني بتدبير منزلها لكنها اليوم امست لا تحفل الاّ بملذاتها ولا تفكر الا بزينتها وتبرّجها .

ويعزّ عليّ ان اخبرك انها قلّما تُرى في بيتها بل تظل متنقلة في امكنة اللهو والقصف غير حافلة بواجب الزوجة وواجب الامّ .

انني لا ادري اي شيطان علقها وقادها الى هذه الطريق العوجاء حتى امست لا تشفق على صغارها الابرياء .

ان قلبي يقطر دماً كلما شاهدتهم وحدهم يروحون ويجيئون في فناء الدار باثوابهم القذرة البالية وعلائم المسكنة والذل منطبعة على وجوههم . فكأنهم ايتام لا اب لهم ولا ام يعتنيان بامر طعامهم ولباسهم ونظافة ابدانهم .

لقد نصحت ليلى مراراً ان ترتدع عن غيها وتنتبه الى صغارها فلم ترعوي لنصحي ولم تحفل بكلامي .

وقد قالت لي يوماً : انني افعل كل ذلك انتقاماً من زوجي الخائن المتهتك الذي لم اره يوماً واحداً يهتم بزوجته واولاده . انه رجل خالي الاحساس والشعور لا يحب غير ذاتـه ولا ينشد غير ملذاته .

اما كفاني اثنا عشر عاماً ضحيت بها في سبيله لعله يتعظ فلم يزدد الاَّ اثماً .

قولي لي بحقك أما كفاني ما قاسيت من فظاظة طباعـه وسوء تصرّفه وما تحمّلت من ضروب الشقاء وسوء المعاملة !

أما آن لي ان اتعلّم منه محبـة الذات واسعى وراء لذتي كما يسعى وراء لذته !

فهل من العدل ان اضحّي بحياتي كلها من اجل رجل لا يفهم معنى التضحية واحافظ على شرفـه وعرضه وهو لا يفقه معنى الشرف و العرض .

فأجبتها : انك بعملك هـذا لا تثأرين من زوجك بل من نفسك ومن هؤلاء الاطفال الابرياء الذين صحّ بهم قول الكتاب :

الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون .

لقد نصحتها كثيراً ولكن بلا جدوى . وكلما اظهرت لها خطأها أو زدت ارشادها تزداد تعنتاً وامعاناً في ضروب اللهو والفجور لأنها أمست كالصخر الاصمّ لا تحسّ ولا تسمع وكالفاقد الشعور لا تستحي ولا تخجل .

ومما يدهشني ايها الحكيم انني اعرف ليلى من مدة طويلة . اعرفها امّاً شفيقة وامرأة حكيمة طاهرة القلب والضمير . فلا اعلم كيف خسرت بين ليلة وضحاها شفقتها وحنانها وحكمتها وطهارة قلبها .

فكيف تخوّل لها نفسها ترك صغارها من الفجر الى النجر وليس عندهم من يعتني بامرهم !

وكثيراً ما سمعت اطفالها يتشاتمون ويتضاربون ويتراشقون بالكلام البذيء الذي لا ينطق به الاّ السفلاء . ولا من يزدعهم عن الشتيمة والبذاءة .

وكثيراً ما سمعتهم ايضاً يصرخون صراخاً اليماً فاهرع اليهم سائلة عن سبب بكائهم فكانوا غالباً يجيبون انهم جائعون وليس لديهم ما يأكلون . فينفطر قلبي اسىً عليهم . وفي اكثر الاحيان أجليهم الى بيتي وأغسلهم واطعمهم والتفت اليهم كلما سنح لي

الوقت . ولكن هذا لا يكفي لأنهم بحاجة الى امّ تعتني دائمًا بهم وتظل بقربهم .

تأمّل ايها الحكيم ماذا حدث البارحة : ان طفلها الاصغر وعمره ثلاث سنوات كان يلعب وحده في الشارع . ولولا لطف الله لذهب ضحيّة السيارة .

سمعت صراخه فهرولت مسرعةً اليه وعندما رأيته بيد السائق الذي انتشله من بين الدواليب مخدَّشًا داميًا انفطر قلبي عليه

اما السائق فمذ وقع نظره عليّ قال لي بصوت حاد : هل هذا الطفل يتيم الابوين وليس له احد يعتني بامره ؟ فكيف يُترك في شوارع المدينة المكتظة بالحافلات والسيارات ؟ فاخذت الولد منه دون ان اجيبه عَلَى كلامه وذهبت الى البيت فضمّدت جراحه وآسيته ثم اعطيته بعض اللعب ليسلو بها ألمه .

ولما عادت والدته في المساء اخبرتها عما جرى . فبدلاً من ان توئّب نفسها على قصورها واهمالها امر صغارها قامت تضرب طفلها الجريح ضرباً مبرّحاً وتزجره زجراً عنيفًا لذهابه الى الشارع . فطفق يبكي بكاءً مراً ويتطلّع اليّ بعينيه المغرورقتين بالدموع كأنه يريد ان يستنجد بي على عسف امه .

فعندئذ صحت بها : كفى يا ليلى ان هذا الطفل لا يستحق

ضربك وتعنيفك لأنك انت المخطئة لأهمالك امر اطفالك وعدم اعتنائك بهم .

ان العدل يقضي عليك لعدم قيامك بواجبات الامومة ولا يقضي على طفلٍ صغير لا يفهم الخير من الشر .

فاشمأزت من كلامي واجابتني بحدّة وغضب : انا اعرف واجباتي ولست بحاجة الى نصائحك وارشادك ولا اريد ان تتدخّلي بأمري كما لا أتدخل بأمرك لأن من يتدخّل بما لا يعنيه يسمع ما لا يرضيه .

لقد افهمتني ذلك بغلاظة مقرونة بالقحة والفجور وغاب عنها انني جارتها المحبة الصادقة التي تتمنى لها الخير . فهل لك ان تمدّ يدك ايها الحكيم وترمقها بعين حكمتك وعطفك ؟ لعلك تردعها عن الاثم والغواية رحمةً بها وباطفالها الابرياء .

الحكيم — لقد رابني سلوك ليلى منذ ثلاثة اشهر يوم لقيتها في سهرة راقصة في أحد فنادق المدينة مع شاب في مقتبل العمر . لم تراقص سواه تلك الليلة ولم تحفل الاّ به .

وكانت في كل حركاتها وسكناتها مبعث الشكوك . فأحببت قبل انصرافي ان اهمس باذنها بعض الملاحظات واذكّرها بواجباتها الزوجية وبصغارها معتقداً انها تقبل نصيحتي كما

كنت منتظراً ان تزورني في اليوم الثاني آسفة عما بدر منها ٠
لكنها حتى الآن لم تفعل ٠

لقد قالت لكِ : انها لم تسلك طريق الغواية الا نكاية بزوجها لا حباً بالغواية ٠ فهل تعتقدين ان هذا يبرّر عملها ويجعلها مرتاحة الضمير ؟

فاذا سُرق بيتك فهل يجوز ان تسرقي بيت جارك ؟

واذا كذب احد عليك او خانك بعض اصدقائك او احد من اهلك فهل تستبيحين لنفسك الكذب والخيانة ؟

لقد نطقت الحق عندما قلتِ لليلى انها بسلوكها الشائن لا تثأر من زوجها بل من نفسها ومن اطفالها الابرياء وقد تمثلت بقول الكتاب :

الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون ٠

اجل يا سلمى ما زالت الشريعة الانسانية ناقصة من كل وجوهها لا تزال نرى الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون

ولكن متى كملت الشريعة واستوت الانظمة والقوانين واصبحت الانسانية مجموعة شعوب متحدة تؤمن بالحق لا بالقوة وتحفل باللب دون القشور وتسهر على تربية النشء وتحمل مقدراتهم فعندئذٍ لا يضرس الآكل الحصرم ٠

ان العدل الالهي لا يعاقب احداً على خطيئة غيره . فاذا كان الانسان وُلد بالخطيئة كما يقول الكتاب او بالنعمة الدائمة كما يقول بعض المتصوّفين فهو غير مسؤول عن ولادته التي لم يكن بها مخيّراً بل مسيّراً . ولا يحمل تبعة الخطيئة الاصلية كما لا يستحق ثواب النعمة الدائمة .

انه مسؤول عن عمله واذا لم يكن مخيراً في صنع الخير أو الشر فيجب ان لا يعاقب ولا ان يجازى عليهما .

****

ان الضمير والوجدان يقضيان على المرء بأن يساعد ابناء جنسه وان يكون محباً للحق طموحاً لاكتساب العلم والفضيلة ولكن ليس علينا ان نطلب منه ان يجترح المعجزات .

****

سأجرّب أن التقي بليلى في القريب العاجل واخاطبها بصراحة عن خطإها المبين في مقابلة الاثم بالاثم . لأن الشرّ لا يخمده الشر بل يزيده اضطراماً .

فاذا شاءت ان تنتصر عَلَى الرذيلة فلتتسلح بسلاح الفضيلة . والا فهي الجانية على نفسها .

وما على الرسول الاّ البلاغ .

الفصل الخامس

الحكيم يتأمل في شذوذ الآباء والامهات وتعاسة اطفالهم ويبحث في قضية تربية البنين وامر تثقيفهم

وبعد ذهاب سلمى دخل الحكيم الى مكتبه واخذ يتأمّل في شذوذ الآباء والامهات وتعاسة اطفالهم .

ثم أخذ قصاصةً من الورق وكتب عليها ما يلي :

ان افظع الجرائم البشريةً هي جريمة الآباء والامهات الذين لا يعبأون بغير شهواتهم وملذاتهم ولا يكترثون لحاجات اطفالهم ولا لأمر تهذيبهم وتثقيفهم .

وافظع الفظائع ان تقف الانسانية تجاه هذه الجرائم وقوف المتفرّج دون ان تمدّ يدها لاحتضان هؤلاء الاطفال الابرياء الذين يقاسون مضض الشقاء والتعاسة ولا ذنب لهم سوى انهم ولدوا مرغمين من هؤلاء الاشرار الذين اعمتهم الاباطيل ونزعت الرحمة والحنان من قلوبهم .

لقد جاءت سلمى اليوم تقصّ عليّ بعض مغامرات جارتها ليلى وزوجها وشذوذهما وكثرة انهماكهما في الملاهي والموبقات وعدم

الاعتناء باطفالها الابرياء ولا القيام بجزء يسير من واجباتهما الابويّة نحوهم .

لقد مثلت امامي حالة هؤلاء الصغار التعساء تمثيلاً مؤلماً واخبرتني انهم غالباً يُتركون وحدهم من الفجر الى النجر بلا معوانٍ يعولهم ويعتني بامر طعامهم ولباسهم .

ان حالتهم تستدعي الشفقة والرحمة ولكن لا شفقة ولا رحمة في قلوب الآباء والامهات الذين يعبدون شهواتهم .

لأن من يعبد شهواته يتحجّر قلبه ويخسر حنانه وتُفسد اخلاقه .

****

كلما عدت الى نفسي واخذت اتأمّل في محيطي ودخائل كثيرين من اصدقائي ومعارفي واسرار حياتهم العيلية ومجتمعاتهم الخاصة اتأثّر كثيراً لانحراف معظمهم عن واجباتهم الابوية من جرّاء انهماكهم بالمقامرة والموبقات والامور الدنيوية الباطلة .

لقد سهرت البارحة في بيت أحد الاصدقاء وكان عنده نخبة من السيدات والسادة ينتمون الى ألمع الاسر الكريمة في هذه المدينة .

فبعد ان تحدثوا قليلاً عن الحرب الايطالية الحبشية وعن

السياسة المحليّة المرتكزة فقط على الوظيفة ورجال الوظائف التفّ جميعهم حول المائدة الخضراء وابتدأوا في المقامرة .

وكان سيّد الدار وسيدته يترأس كلٌّ منهما فئة من اللاعبين وبقيت وحدي بينهم جالساً أتأمّل بهم .

****

مضت ثلاث ساعات لم اسمع منهم حديثاً سوى حديث الربح والخسارة ومناورات « البوكر » .

قضيت السهرة متأملاً حركاتهم وسكناتهم ليتسنّى لي درس نفسياتهم وتفقّد نزعاتهم وهم يلعبون .

رأيتهم يتناضلون على المائدة الخضراء كأنهم اعداء في ساحة الوغى .

وكان الورق الذي نظرته يتبدّل كل فترةٍ في يدي كلٍّ منهم كأنه عتاد حربهم واداة نضالهم .

وكان كلما تبدّل تبيض وجوه وتسودّ وجوه .

هذا الورق الناعم الذي لا يخدش انعم الانامل يفعل بالناس ما لا تفعله افظع الحروب الدامية والمدافع الحاصدة .

ان الحروب مهما اشتدت وطأتها لا بد ان يخمد سعيرها ويرتاح الناس من شرورها . اما حروب الميسر في هذا الجيل فهي

مستعرة ابداً بين جميع الملل والطبقات لا هدنة ولا سلام فيها .

****

وبعد منتصف الليل صرخ طفل في الغرفة المجاورة فجاءت الخادمة به الى والدته سيدة الدار التي لم تحفل بولدها وفلذة كبدها بل أخذت توبّخ خادمتها تأنيباً شديداً قائلة لها :

انك بهيمة لا تعقلين ألا ترينني منشغلة مع ضيوفي ! لماذا جئتِ به الى هنا ؟ اذهبي حالاً واعطيه قليلاً من ماء اليانسون الساخن كما علمتك مراراً فينام ونرتاح من صراخه .

فذهبت للحال وصنعت ما أمرت مولاتها لكنّ الطفل لم ينم بل زاد انيناً حتى ايقظ اخويه النائمين بجواره . فشرعا يبكيان كأخيهما حتى ازعجا جمهرة اللاعبين . فعندئذ دخلت الوالدة الغرفة وعنّفت ولديها تعنيفاً قاسياً و كلّمت الخادمة كلاماً جارحاً . ولما رأت ولديها لا يمتنعان عن البكاء ضربتهما فسكتا خوفاً وجزعاً .

ثم قامت للطفل الصغير الذي لا يبلغ العام وانتزعته انتزاعاً من يدي الخادمة ووضعته في سريره وقالت لها : دعيه ينام لحاله .

ثم عادت الى مائدة الميسر كأنّ لا شيء غير الميسر يروي ظمأها .

وبعد قليل عادت الخادمة الى سيدتها متوسلة اليها كي تنهض لمشاهدة طفلها الذي يئن أنيناً متواصلاً ولا ينام كعادته.

فاجابتها غير مكترثة دعيه وشأنه .

فعندئذ قلت للخادمة : دعي السيدة بجانب ضيوفها وأنا اذهب معكِ وارى الطفل .

فاجابت السيدة لا تزعج نفسك بذلك فبعد قليل ينام هنيئاً فلا شيء يدعو للقيام اليه .

فأجبتها : انني احبّ الاطفال حباً جماً فلا تزعجني خدمتهم كما اني أصبو دائماً لمرآهم .

ثم دخلت الغرفة فشاهدت الصبيّين الذين ضُربا نائمين لكنهما لا يزالان يتنهّدان تنهداً متقطعاً . ورأيت الطفل الصغير يئن انين من انهكه المرض . فلمست جبهته ثم تناولت حالاً ميزان الحرارة من الخادمة ووضعته في فمه . ولما عاينت درجته وهي تزيد على الاربعين دعوت والدته الى الغرفة وقلت لها : ان طفلك مريض تنهشه الحمى نهشاً عليكِ ان تهتمي سريعاً بأمره وتدعي طبيباً لمعالجته .

اما ولداكِ النائمان بجواره فاسمعي كيف يشهقان من الخوف من جرّاء ضربكِ وقساوتك . اعتبري كل ذلك

وتجنّبي الوقوع بمثل هذا الخطأ في الغد .

ثم تركتها وودعت الحاضرين وعدت الى البيت .

****

وفي خلال الطريق أخذت افكر في قساوة هذه المرأة وعدم اهتمامها بامر صغارها ثم قلت في نفسي : تباً وسحقاً للمقامرة التي تنسي الام أقدس واجباتها وتنزع الرحمة والحنان من قلبها

****

ولما وصلت الى منزلي دخلت غرفتي وخلعت ثيابي ثم استلقيت على فراشي . ولكن عبثاً حاولت النوم لانني كنت متوتر الاعصاب لم اقدر ان انزع من مخيلتي صورة هذا الطفل المريض الذي تنقصه العناية وحنان الأم ولا ملامح أخويه الصغيرين اللذين يعوزهما التربية الصحيحة والحنان الصحيح .

ثم أخذت تمرّ في ذهني مشاكل الحياة الاجتماعية وحوادث بعض العيلات من معارفي واصدقائي وشرعت استعرضها حادثةً حادثة كما يستعرض القائد جنده . وكنت أقف برهةً عند بعض الحوادث الشائنة مدققاً في اسبابها كما يقف القائد امام الجندي الشاذ يدقق في سبب شواذه

فبلغت في استعراضي الى حادثة ليلى وزوجها واغراقهما في

الموبقات وعدم اكتراثها لأطفالها المساكين الابرياء .

وبعد ان تأملت ملياً في شذوذها وتفقدت بعض اعمالها المنكرة وصلت الى هذه النتيجة المؤلمة :

كم وكم من الناس الذين هم على شاكلة ليلى وزوجها . وكم وكم من الاطفال المساكين المهملين مثل اطفالها .

فأمام هذه الحقائق الجارحة التي لا تشرّف الجنس البشري اخذت اتساءل :

ماذا يجب ان يصنع العالم المتمدن لتلافي الحيف الواقع على الاطفال الابرياء الذين هم تحت رعاية آبائهم العاجزين عن القيام بأمر معاشهم وتهذيبهم ؟

أليس عدم المساواة في تربية الاطفال وتثقيفهم يُعدُّ ظلماً فادحاً ليس فقط يلحق الانسانية عاره بل يحرمها ايضاً من سرعة التقدّم والرقي في مضمار المعرفة ويعيقها عن الوصول الى المثل الاعلى .

فكم من الناس الذين لو اتيح لهم ان يتثقفوا لأتوا بالمعجزات وأفادوا الانسانية فائدة عظيمة .

اما ذهبوا ضحية الاهمال والانانية وفريسة الشرائع الجائرة !

أليس البستاني النبيه الذي يعتني باغراسه في دور نموها

الاول ويسهر دائماً على تقويم اعوجاجها يراها تنمو مستقيمة اكثر منها معوجةً وقوية اكثر منها ضعيفة ؟.

هكذا الناس في دور طفولتهم وصبوتهم اذا بذلت العناية اللازمة في امر تهذيبهم وتثقيفهم يشبون اكثر نشاطاً واستعداداً للتقدم والرقي واشد ميلاً لاعتناق المبادىء القويمة .

فلماذا اذن لا تمثل حكومات الامم دور البستاني النبيه وتساعد علماء القرن العشرين وفلاسفته على وضع كتاب شامل يضم قواعد التربية الصحيحة التي تقود النشء الى طريق الارادة الفاضلة والخلق المتين ؟

ان علم التربية هو وحده يضمن مستقبل الناس ويقودهم الى المثل الاعلى في الحياة . فيجب ان يتلقّنه النشء في جامعات المدن وفي مدارس القرى والدساكر قبل كل فنٍ وعلم اذا شاء الناس ان يحافظوا على سلامة اجسادهم وصفاء اذهانهم ومتانة اخلاقهم .

اجل ان الناس ليسوا جميعهم صالحين لتلقين علم التربية . فمن الواجب اللازب على الفئة الصالحة منهم بان تتخصص في هذا العلم وتحمل على عاتقها تربية الناشئة الانسانية . لأن الاطفال ليسوا ملك آبائهم ولا سلعاً يتصرّفون بهم كما يشاؤون بل هم

ملك الانسانية وتراثها المجيد .

فمتى وصل الجنس البشري الى هذه التربية العامة الشاملة التي تحرّر النشء من عجز آبائهم وامهاتهم ومن اهمالهم وسوء تهذيبهم فعندئذٍ يصح لنا ان نقول :

لقد بلغنا العصر الذهبي — عصر العلم الصحيح والتمدن الصحيح والادب الصحيح .

الفصل السادس

الحكيم يشاهد ليلى في نادي الشبان ويتباحثان في غاية الحياة
الانسانية فتجاهر امامه باعتقادها ان غاية الحياة هي اللذة
والاستمتاع واشباع الرغبات الجسدانية فيغالطها
مبرهناً ان غاية الحياة هي اسمى مما تعتقد

مساء أمس ذهب الحكيم الى نادي الشبان ليتفقّد شبيبة العصر ويدرس اطوارها ونزعاتها .

وكان النادي في تلك الساعة غاصّاً بالزائرين والموائد كلها مغمورة بالكؤوس ومزدانة باقمار الطبيعة واقمار الجنس البشري

فاخذ الحكيم يتلفّت يمنةً ويسرة ليرى مقعداً فارغاً يجلس عليه واذا بغادة حسنة المندام رشيقة القوام تدعوه الى مائدتها وكانت ترافق شاباً وسيم الطلعة في اوائل العقد الثاني من عمره بينما هي اوشكت ان تودع الثلاثين .

ولما اقترب منها قالت له :

تفرّس بي قليلاً ألا تعرفني ايها الحكيم ؟

انا ليلى : وهذا صديقي رأفت عامر الحائز شهادة الهندسة

وهو من الطف الشبان ومن اكملهم اناقةً وظرفاً .

ثم قالت : ماذا جاء بك الى هنا ايها الحكيم ؟

هل يلذّ لك نادي الشباب ؟ وهل زرته سابقاً ؟ ام هي المرة الاولى التي تزوره ؟ لأني لم اجتمع بك هنا غير الآن .

فاجابها الحكيم : لم ازر هذا النادي سابقاً وقد احببت الآن ان ادخل اليه زائراً كما دخلت الى معظم اندية المدينة وحاناتها ومسارحها وملاهيها . لأني من اولئك الذين يتفقدون كل مجتمع ويتجوّلون في كل مكان . فكما ادخل المسارح والاندية هكذا ادخل المهاكل والمساجد . وكما اتفقّد اديار الراهبات والرهابين هكذا ارقب بيوت الفحشاء والمقامرين . وكما ارتاد قصور الاغنياء والحاكمين هكذا ادخل اكواخ الفقراء والمزارعين . وكما ازور المعاهد وارقب نفسية المعلمين والمتعلّمين هكذا اطرق ابواب المستشفيات واتفقد المداوين والمتداوين . لاني اودّ ان اختبر بنفسي جميع مناحي الحياة الانسانية وادرس افراحها واتراحها وعوامل بيئاتها المختلفة ونزعاتها المتنوعة لأتبيّن جيدها من رديئها ونافعها من ضارها لعلي اتخذ من درسي واختباري عبرةً مفيدة لنفسي ولسواي .

ليلى — مالك وكل هذه الدروس والمتاعب التي لا فائدة لك ولا

لأحد منها .

عش كما تشاء ؟ ودع الناس يعيشون كما يشاؤون ؟

دعهم احراراً ينشدون اللذة التي يرغبونها .

دع الناسك ينشدها في صومعته ! والراهبة تنشدها في صلاتها وتعبدها . والعاهرة في اباحتها وعهرها .

دع كلاً ينشدها اين يجدها .

أليست الحياة قصيرة على الارض ؟

فلماذا لا ينشد كلٌّ منا لذاته ويشبع رغباته .

ان ساعة الحظ هي الساعة الوحيدة التي نعيشها فيجب علينا ان نغتنمها .

لقد صرفت اعواماً متمسكةً باهداب الفضيلة وتحمّلت بسببها الجور والمساوىء . فماذا كانت النتيجة ؟ أما أضعت زهرة عمري انشد الفضيلة كمن ينشد خيالاً لا وجود له او كمن ينشد الماء في السراب !

ولما حطمت هذه القيود أعني قيود الفضيلة التي أوجدها عنت المشترعين ولؤم العاجزين وابتدأت أعيش طليقةً من المحرّمات شعرت بلذة الحياة التي خلق لأجلها كل حيّ .

وكانت تتكلم بقوة الواثق من حقّه والمؤمن بقوله . وكان

الشاب الجالس الى جانبها يشاطرها رأيها ويساعدها من حين الى حين كلما غمض عليها امر في بسط معتقده في قضية اشباع شهوات النفس واتباع الحياة الطليقة من كل قيد ·

وبعد ان تبسطت ليلى ورفيقها بالكلام في هـذا الموضوع ختما حديثهما طالبين من الحكيم ان يفهمهما ما هي قيمة الحياة اذا لم تكن مقرونة باللذة والاستمتاع واشباع الرغبات الجسدانيـة

فقال : لم ادخل هذا النادي لاتكلم بل لأسمع ولا لأعطي درساً بل لأدرس ولا لألقي عظة بل لأتعظ ·

لقد جئت لأتفقد ناحية من نواحي الحياة الانسانية ألا وهي ناحية مرح الشبان ولذاتهم · فكما يهمني الآن ان أسمع موسيقاهم الشجية وأرقب وجوههم الباسمة الفتية واشاهدهم يرقصون ويشربون ويغنون ويزغردون هكذا يلذ لي احياناً ان أجلس في مجلس الكهول والشيوخ متفقداً احوالهم ونزعاتهم ·

لجل مبتغاي ان أتعرف الى الجنس البشري من جميع نواحيه من ناحية طفولته الى ناحية هرمه · ومن ناحية حسناته ومساوئه — وفقره وغناه — وجهله وعلمه — وتدينه والحاده — وشجاعته وجبنه — وكرمه وبخله — الى ناحية عدله وظلمه — ولذتـه الروحية والجسدية وألمه المادي والادبي

لقد ذهبت البارحة لزيارة مستشفى الحكومة للدرس والاعتبار ومواساة المرضى والمتألمين .

وما ان بلغت رتاجه حتى استوقفني أنين الجرحى وعويل انسبائهم .

اصطدامٌ حدث منذ دقائق .

لقد دهم القطار الحديدي سيارة اتوبيس تعجّ بركابها . فوقع من جراء هذه الصدمة العنيفة بعض القتلى والجرحى فجيء بهم الى هناك .

وقد شاهدتهم فور وصولهم وقبل وصول الاطباء والممرضات .

مشهدٌ موئلٌ مفجع . وموت مرعبٌ كموت الجنود في ساحة الحرب . وانين موجع كأنينهم . مشيت بينهم واخذت أتفقدهم واحداً واحداً وقلبي ينفطر اسىً عليهم لكنني لم أقدر ان أذرف دمعةً واحدةً لأن عينيّ جمدتا من جراء ذلك المشهد الرهيب وغار معينهما كما تغور مياه الجدول المصطدم بنازلةٍ من نوازل الطبيعة الهائلة .

ثم جاء الاساة وأعوانهم وابتدأوا ينقلون الجرحى الى اماكن المعالجة ويدخلون القتلى الى قاعة الموت لأجل تشريحهم واعطاء

تقرير مفصل للحكومة عن سبب الوفاة .

وكان عددهم سبعة ثلاثة فتيان واربع فتيات قصفتهم يد المنون في لحظة بالرغم من قوة فتوتهم ونضارة شبابهم . وهكذا تقصف الزوبعة انضر الشجر مهما كانت قوية يانعة .

هناك سألت احد الجرحى الذي كانت حالته اسلم عاقبة من رفاقه . وكان الاطباء قد انتهوا من تضميد جراحه ووضعوه بغرفة خاصة .

ماذا حل بكم ؟ قال والدموع تترقرق على خديه المحزّمين بالاقمطة : ان خطبنا لجسيم ومصابنا لعظيم ...

لقد قرّرنا البارحة ان نقضي هذا النهار في البساتين الجميلة الواقعة على ضفاف النهر .

فجئنا عشرون شاباً وشابة في حافلة من حافلات «الاوتوبيس» وتزودنا انفر المشروبات وأطيب المآكل وتأبطنا بعض آلات الطرب كالعود والناي وغيرهما .

ولما دهمنا القطار الحديدي كنا جميعاً نغني ونزغرد بأعلى اصواتنا وكانت اوتار العود والناي تشنّف آذاننا فتزيدنا هوساً وحبوراً . ولم يدر بخلد أحد منا ان يومنا الذي كنا نحسبه من ابهج ايام الحياة سينقلب شؤماً ووبالاً علينا .

لقد غاب رشدي عندما نُكبنا بهذه الصدمة القاتلة ولم اعِ الاَّ وانا في هذا المستشفى بين ايدي الاساة ٠

انني لا ادري الآن ماذا حل بشقيقيَّ وسائر رفاقي ورفيقاتي فلماذا يتركونني وحدي ولا يأتون اليَّ ؟

هل هم بحالة اتعس من حالتي ؟ ام هل قست قلوبهم وتحجَّرت عواطفهم ؟

رحماك ! أحطني علماً عن كلٍ منهم وجزاوك الله ؟

فذهبت من لدنه مستفحصاً عن حالة اخويه ٠ ولما عرفت ان احدهما اسلم الروح والثاني بحالة الخطر عدت اليه قائلاً : ان شقيقيك جريحان مثلك ولهذا السبب لم يأتيا اليك وهكذا سائر رفاقك ورفيقاتك ٠

ثم ودعته وهو يتقلب على فراش الالم والهواجس من جراء جراحه وتفكره بحالة شقيقيه ورفاقه ٠

****

تأمّلي يا ليلى كيف كان هؤلاء الشبان والشابات يتسنّمون اعلى قمةٍ من قمم مرح الحياة وبهجاتها عندما صدمهم القدر الغشوم هذه الصدمة العنيفة ٠ فقذف بعضهم في لحظةٍ الى هوّة الموت وهبط بالاخرين الى وادي الألم والدموع ٠

ليلى — انني من المؤمنات بوجهي الحيـاة وجه اللذة ووجه الالم ومن المعتقدات بقول الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساءُ ويوم نُسرّ

لقد تعذبت كثيراً في ماضي حياتي وقضيت احد عشر عاماً في جحيم دائم . و كنت طيلة هذه المدة اردّد هـذا البيت الذي تعلّمته منذ صغري عَلَى مقاعد المدرسة . و كثيراً ما قلت في نفسي متى يا ترى يصح قول الشاعر واحس بيوم لي وبوم عـليّ يوم يسوءني ويوم يسرّني . لأنني لم اشعر في تلك الاعوام السوداء الاّ با كفهرار الحياة وقساوة ايامها . الى ان قيض الله لي هـذا الرفيق الحبيب الجالس الى جانبي الآن فهو الذي مهّد امامي طريق اللهو والمرح وهداني الى معين البهجة والحبور .

فانا مدينة له بجعل ايامي كلها لي بعد ان كانت كلها عليّ .

لقد اصبحت معتقدة ايها الحكيم ان اللبيب في هذه الحياة هو الذي يعرف ان يجعل كل ايامه له لا عليه . ولهذا السبب تراني ما عدت أرغب التأمل بما يسوء ويؤلم لأني أود ان أتخيل الحياة من ناحية أفراحها وملذاتها لا من ناحية آلامها وبؤسها .

هذا هو الدستور الجديد الذي اتخـذته نبراساً لحياتي وهو ينحصر بهـذه الكلمات الوجيزة التي اوحاها اليّ رفيقي : اضحك

مع الضاحكين وارقص مع الراقصين واسلك طريق اللذات لتتمتع بسعادة الحياة . أجل لقد حررني هذا الدستور من قيودي الكثيرة وجعلني اغمض جفنيّ عن الفواجع واصمّ اذنيّ عن المآسي .

وما ان أتمّت هذه الكلمات حتى عزفت الموسيقى الغربية تؤذن بابتداء الحفلة الراقصة . فقام معظم الفتيان والفتيات عن مقاعدهم وابتدأوا يرقصون . وبينهم ليلى ورفيقها .

ولما انتهت القطعة الموسيقية عاد كلٌّ الى مكانه . وعادت ليلى الى حديثها . فقالت للحكيم : كيف رأيت هذا المكان ؟ أليس جميلاً ؟ ألا تلذك هذه الوجوه الصبيحة ؟ وهذه القدود المائسة ؟ وهذه العيون الفاتنة ؟ وهذه الشبيبة الرائعة وهذه الاجسام البضة الناعمة التي تتنقّل وتتمايل بخفة ورشاقة على نغمات الالحان والاوتار كما تتنقل وتتمايل العصافير على نفحات النسيم البليل وعلى نغمات شدوها وتغريدها ؟

أليس هكذا يجب ان نقضي الحياة ؟ ثم ملأت ثلاث كؤوس من الشمبانيا وقدّمت كأساً للحكيم والأخرى لرفيقها وحفظت الثالثة لها وقالت : اشرب ايها الحكيم سرّ لذة الحياة وخمرتها المعتقة ورحيقها الصافي من كل شائبة . اشرب وارقص وغنِّ واشبع كل رغبات جسدك ودع جانباً اقاويل الناس

ومحرماتهم ومشاكلهم وآلامهم . كل واشرب ما يلذّك قبل ان يطبق الموت شفتيك وغنّ قبل ان يخرس لسانك واسرح وامرح قبل ان تشيخ وتهرم وارقص قبل ان تفقد كل حركة وتسكن في قبرك الى الابد .

فاجابها الحكيم — انك بهذه النغمة التي طلعتِ عليّ بها الآن تستدرجيني للكلام عما يخالج نفسي في حين اني صرّحت لك انني لم ادخل هذا المكان للمناقشة بل للدرس . ولكن اذا قدّر للمرء في كل دقيقة من دقائق الحياة ان يفيد ويستفيد فما عليه ان يتوانى في ذلك .

يا ليلى اذا كنتِ ترينني الآن اشجب الذين يسلكون طريق اللذات المتطرفة والاباحات غير المشروعة فهذا لا يعني انني ادعو الناس الى الزهد في الحياة او الى التقشف المتناهي الذي يرمي لقهر الجسد وعدم الاعتناء به .

انني اخطّئ اعمال المتطرفين والشاذين سواء اكانوا من هؤلاء او من اولئك .

ان النسّاك الذين لا يعملون عملاً غير الصلاة والتقشف ويصرفون اعمارهم في البرية منقطعين عن الناس ومبتعدين عن افراحهم واتراحهم . ويعتقدون الصلاح كل الصلاح في حياة

الخلوة وامتهان الجسد وشظف العيش فهم في نظري تائهون في بيداء الوجود عن اتمام رسالتهم الانسانية وتأدية واجباتهم الاجتماعية وضالون عن قطيعهم مهما كانوا انقياء القلوب وودعاء النفس . فهم يشبهون النعاج البريئة الضالة عن قطيعها . فكما يتفقدها الرعاة ويبحثون عنها في كل حدب وصوب لأعادتها الى الحظيرة الامينة هكذا يجب ان نتفقد امثال هؤلاء النساك الساذجين القابعين في صوامعهم المتطرفين في تعبّدهم وتقشفهم لأجل ردهم الى القطيع الانساني فيتمتعوا بنعم الحياة ويفيدوا الناس باعمالهم ومبرّاتهم .

فاذا كانوا يبتغون مجد الله في زهدهم وانفرادهم وتحملهم مضض الفاقة والقهر . فمجد الله لا يقوم بامتهان الاجسام والابتعاد عن نعم الحياة بل بمزاولة الاعمال النافعة في حقل هذا الوجود .

ان حياة الناسك في صومعته تشبه شمعة القبور تحرق نفسها دون ان تنفع احداً في نورها . وفضيلتها الوحيدة انها لا تلحق الاذى بغيرها اذا كان عدم الحاق الاذى يعد فضيلة في نظر الناس . بينما المقامرون والفاحشون والمنافقون والظالمون كلهم يؤذون نفوسهم ويوقعون الضرر بغيرهم . فهم يشبهون المرضى المصابين بالاوبئة الخبيثة التي ليست فقط تفتك بهم بل يحملون عدواها الى

بيئاتهم وينقلون جراثيمها القاتلة الى ابناء محيطهم .

فاذا شئنا صيانة الجنس البشري من الهلاك المادي والادبي في هذه الحياة الدنيا فمن الواجب اللازب ان نحارب الفحشاء والمساوئ « اما الهلاك الجهنمي فلا شأن لي به فهو من شأن الكهان والشيوخ » .

واذا شئنا ان نزرع بذور الطموح والرقيّ في قلب المجتمع فعلينا ايضاً ان نحارب الزهد الذي يقعد المرء عن الجهاد في حقل هذا الوجود .

واذا كنا نروم الانتصار للحق والغلبة على داء الرياء والمصانعة فما علينا سوى محاربة النامين والمتعبّدين الكاذبين الذين يظهرون امام الناس بمظهر القداسة والوداعة لكنهم كالافاعي ينفثون سمومهم على كل من يحتكّ بهم او يقترب منهم .

منذ شهر دخلت احد الهيا كل في يوم عيد وكان غاصاً بالمتفرجين لا بالمؤمنين . أقول بالمتفرجين ولا اخشى لومة لائم لأنني لست من الذين يلقون الكلام جزافاً .

فانا لم اجاهر بهذا القول على رؤوس الاشهاد الاّ بعد ان تفقّدت الناس كثيراً في معابدهم وسبرت غور أفكارهم وبواطن ضمائرهم . ودخلت الى أعماق أعماقهم .

وكثيراً ما راقبتهم في أبان صلواتهم وسجودهم وركوعهم فلم أجد والحق يقال صورة الاخلاص في التدين الاّ عَلَى بضعة أفراد منهم يعدّون على الاصابع .

اما الاكثرية الساحقة من الكهان والشعب فهم يدخلون الهياكل من قبيل العادة او من قبيل الغايات الدنيئة او لأجل اظهار التعبّد الكاذب امام الناس .

ان الهياكل بُنيت باسم الحق لا باسم البطل وشيّدت لاجل تعميم الفضائل لا الرذائل ولاجل تطهير النفس من مساوئها لا لزيادة انغماسها في المساوىء .

فمن الواجب ان تكون منزّهةً عن الشوائب لا مسرحاً لها .

انني لست من الداعين لتكرار الصلوات وكثرة الركوع والسجود في الهياكل . فاذا شاء المرء ان يدخل الهيكل ليختلي بنفسه ويحاسبها على اعمالها فحسناً يصنع وما خلا ذلك فهو مخاتل يتظاهر بما ليس فيه .

ان الضمير الحيّ والعمل المثمر المفيد في هذا الكون هما بنظري افضل صلاة يقبلها الخالق ويسبغ عليها وابل نعمه لا تعدلها ملايين الصلوات والتوسلات .

****

يا ليلى كيف تريدين ان ندع كل امرىء ينشد اللذة التي يرغبها ؟ فاذا كان الامر هكذا وتُرك الحبل على الغارب فماذا يحل بالانسانية ؟

فهل تريدين ان نترك اللص ينشد لذّته بسلب الاموال وسفك الدماء .

وندع الفاسق ينشدها بانتهاك المحرّمات والاعتداء على اعراض الناس ؟

وندع المنافق يهضم حقهم والنمّام يشي بهم والمستبد يستعبدهم والمخاتل يخدعهم والمقامر يخرب بيوتهم والخالع العذار يستهويهم . لأن كلاً منهم حرّ بان يفعل ما يشاء وينشد اللذة التي يريدها ولو كانت تسيء اليه والى سواه !

وهل يجب ان تقف الانسانية مكتوفة اليدين تجاه هذه اللذات الضارة التي ليست فقط تفسد اخلاق المجتمع الانساني بل تقضي على طموحه وعلى كيانه الادبي والمادي .

يا ليلى ان المرء عندما ينجز عملاً مفيداً يشعر دائماً بلذة عمله وراحة نفسه حالة كونه عندما ينتهي من عملٍ دنيء يشعر بفقدان لذته وخزيه وانقباض نفسه وهذا يعني ان اللذة الدائمة هي نتيجة الاعمال المفيدة لا نتيجة الموبقات.

اما اشباع الرغبات الصحيحة فلا يحصل عليها المرء الاّ من وراء الطموح والمغامرات الشريفة لاجل رفع مستوى النـاس الادبي والمادي . لا في المغامرات الدنيئة التي تلحق الاذى بهم. وهكذا الاستمتاع فليتمتع كلٌّ منا بنتيجة جهوده الشخصية لا بما يأخذه عنوةً من سواه او بما يتناوله او يرثه من أبويه وذويه

وثقي يا ليلى ان اللذة الحقيقيـة التي لا يملّها المرء ولا يشبع منها طيلة حياته هي لذة الجهاد المتواصل في سبيل نصرة الحق ولذة اكتساب العلوم والفنون والفضائل .

وليست هذه اللذات بعيدة عن متناول المرء اذا كان لهـا طالبًا . لأنه قادر ان يكيّف نفسه كما يشاء وان يرى لذة في كل مـا يعتاد عليه حتى في الامور التي لا تلذه في بادىء الامر فبعد الخبرة والدرس تستسيغها نفسه وتهفو اليها .

لأن الانسان عدوٌّ لما يجهله وصديق لما يحسنه .

وهذا ما اختبرته بنفسي ولا ازال اختبره في كل سانحة من سوانح الحياة .

وقد جرى لي حادث من هذا القبيل اذكره الآن على سبيل المثال : كنت في أوائل شبابي لا اتذوق فن الرسم ولا ارى لذة في مشاهدة الصور الجميلة والتماثيل البديعة ولو كانت من صنع

عباقرة الفن وارباب الملهمين ·

ولا ازال اتذكر انني عندما زرت للمرة الاولى متحف اللوفر في باريس سنة ١٩٢٣ كنت اتنقل بين التماثيل الناطقة بسحر الفن والرسوم الخالدة بروعتها وبهائها كمن يتنقل في الطرق المألوفة التي لا تستفزه مشاهدها ولا تهمه لا قليلاً ولا كثيراً ·

وذات يوم دخلت وصديقاً لي مرسم احد الفنانين وكانت القاعة التي استقبلنا بها ملأى برسومه وبعض رسوم فناني القرون الوسطى والمعاصرين ·

فاخذ صديقي يطوف في تلك القاعة متفرجاً وقد شاهدته يتطلع في تلك الرسوم تطلع المستعذب مشاهدتها والمستفسر عن رموزها وكان يقف عند بعضها ويطالعها بدقة وبرغبة زائدة كأنه يطالع قطعة خالدة من عيون الشعر او النثر ·

وكان من حين الى آخر يستعين بالفنان ليشرح له ما غمض عليه من تفهم آياتها ·

وبعد انتهائه من الطواف اخذ يباحث الفنان في تلك الرسوم وينتقد بعضها على مسمعه ويثني على البعض الآخر والفنان يشاطره رأيه حيناً ويخالفه أحياناً باسطاً له بعض اسرار الفن ومعجزاته · وانا بينهما كالغريب الذي لا يفهم اللغة التي كانا

يتحدثان بها ٠

فشعر الفنّان بذلك وقال لي : يظهر انك لا تستمرىء هذا الفن لجهلك اياه ولعدم معرفتك بعض قواعده الاساسية ٠ ولكن متى درسته قليلاً وسهل عليك فهمه ليس فقط تستمرئه بل يدهشك سحره وتبهجك روعته ٠

ثم جاء برسم واخذ يدلني على كيفية درسه ويشرح لي وضعيته ودقة انسجامه وتقاطيع كل جزء من اجزائه وطريقة تلوينه وتنسيقه ثم قال لي :

اذا شئت ان تتذوّق هذا الفن كما يتذوقه رفيقك الآن تعال اليّ كل صباح طيلة هذا الاسبوع فاحيطك علماً بكل ما تحب معرفته ٠ ويكفي ان تلج باب الفن وتبتدىء ان تفهمه قليلاً لتتذوقه وتشعر بما فيه من اللذة الفائقة ٠

واذا كنت غير مصدّق كلامي فسل رفيقك فأنه كان مثلك لا يستمرئه ٠ وبعد ان احطته علماً ببعض مقدّماته اصبح من هواتـه ومن المتحمسين في درسه ٠ وهو الآن يصرف قسماً من اوقات فراغه في دور المتاحف وفي قاعات الفنانين يمتع نفسه في مشاهدة بدائع الفن بعد ان كان يرتاد المقاهي والحانات ليمتّعها في الملاهي والمسكرات ٠

فذهبت اليه في صباح اليوم الثاني . ومنذ وصولي أخذ يطوف بي في تلك القاعة ويحدثني عن تلك الرسوم التي كنت اراها صامتةً صمت الموتى وجافةً كجفافهم .

وبعد ان علّمني بضعة ايام كيف يجب ان اتطلع اليها لأسبر غورها والتقط دررها الكامنة في اعماقها ابتدأت أتذوّقها وصرت فيما بعد ارى الرسوم البديعة تتكلم بدون لغة الكلام وتنطق بغير وساطة اللسان .

أجل انها تتكلم وتنطق بقوة روح الفن وسحره . وتدخل من نافذة العين الى الدماغ والجنان فتهزهما هزاً .

ثقي يا ليلى ان من يختبر الفن يلذه الفن ومن يعتاد الرياضة تلذه الرياضة ومن يقبل على التجارة تلذه التجارة . لأن كل عمل يألفه المرء يلذه .

فما بالنا اذاً لا نألف الاعمال المفيدة لأجل الحصول على لذّاتها بدلاً من الانغماس باللذات الهادمة الناتجة من الاعمال الشائنة .

ولما انتهى الحكيم من كلامه تنطّع رأفت رفيق ليلى واجاب : مهما جئتنا من الآيات البيّنات ومن ضروب الحكم والمواعظ والامثال الرائعة والخيالات السامية فلا تقدر ان تثنينا ولا تثني الناس عن اللذات الطبيعية التي فرضها الوجود فرضاً علينا . فما

نحن الذين خلقنا تلك اللذات بل هي موجودة فينا منذ وجدنا على سطح الغبراء . فاذا ابحناها لنفوسنا فلا نكون من العابثين .

هي مشتهيات جسمانية نسعى بالطبع اليها كما نسعى الى الغذاء والماء .

لقد جاء قبلك الانبياء والرسل وحضّوا الناس كثيراً على كبح جماح شهواتهم ووعدوا الطائعين بعد الموت بالثواب في جنة الله وانذروا العاصين بالعقاب في نار ابديةً لا تطفى . لكنهم اخفقوا في تعاليمهم وفي انذاراتهم لعجزهم عن اصلاح الناس في كل ما يختص بنزعاتهم الطبيعية وميولهم النفسانية التي لا تزال كما كانت في عهد اجدادهم هي الحاكمة المطلقة على اذهانهم والمتسلطة على قلوبهم .

ان الغريزة الفطريةً تأمر وتنهي في الناس لا الشرائع الروحية ولا المدنية والادبية .

فالمفطور على الصدق والكرم يحيا صادقاً كريماً والمفطور على البخل او النفاق يقضي حياته منافقاً او بخيلاً وهكذا دواليك .

وفضلاً عن ذلك ان اللذات البشرية متنوعة الاشكال ومختلفة المذاق ليست كلها مستعذبةً عند جميع الناس .

كلٌّ يستعذب منها ما يألف مزاجه .

فكما ان لذة كسب المال وجمعه ينشدها عباد المال ولذّة الصلاة والتعبد يسعى اليها المتعبّدون ولذة العلم يتذوّقها العلماء . هكذا لذة السكر يصبو اليها السكارى ولذة التهتك يستمروئها المتهتكون . ولذة المقامرة يحن اليها المقامرون .

ان الانسان يسعى دائماً وراء اللذات المنطبقة على ميوله وهواه لا وراء اللذات التي لا يألفها ولا يرغب فيها .

وما ان بلغ هذا الكلام حتى سمع الموسيقى تعزف الحان « التانكو » . فوقف للحال وقال للحكيم :

تبصّر فيّ الآن فتبدو لك جلياً قوة الميول والاهواء النفسانية انني احبّ « التانكو » حباً جماً وتستفزني الحانها الشجيّة . فكلما سمعت عزفها أشعر بقوة تدفعني للرقص ألا وهي قوة اشباع رغبات النفس والتماس لذاتها .

ثم استأذن الحكيم ودعا ليلى وراحا يرقصان مع الراقصين .

ولما رجعا الى مكانهما قالت ليلى للحكيم :

كيف رأيت صديقي رأفت ؟ ألم يدهشك بقوة حجته وسحر بيانه وبرقة شمائله وخفة روحه ؟

لقد تخرّج من أعظم جامعات الغرب وتثقّف ثقافةً اوروبية عالية ولهذا السبب تراه حرّ الافكار والنزعات يتكلم بصراحة

وجرأة ويفهم معنى الحياة العصرية بكامل نواحيها ·

وهو كثير التأنق في لباسه ورقصه وفي حديثه وسمره وممتاز بمجونه ودعابته · وفوق ذلك هو علم من أعلام البطولة في الالعاب الرياضية الحديثة ·

لقد ربح منذ شهر كأس بطولة السباحة وفي أوائل هـذا العام فاز بكاس بطولة التنس ·

وحسبه انك تراه دائماً باسم الثغر لا يعرف العبوسة ولا التجهم ولا يرتاد غير اندية اللهو واماكن البهجة والحبور · انه عالم من علماء الطبيعة البشرية يعرف جيداً ان يتدبر لذة ثمار الحياة وورودها وان يتنحى عن اشواكها وقشورها

فاجاب الحكيم ليلى ورفيقها بكل صراحة قائلاً :

انني من المؤمنين بفائدة العلم الصحيح والمدنية الصحيحة وبمنفعة الالعاب الرياضية التي تؤدي الى سلامة الاجسام والاذهان ·

لكني لا اعترف بالعلم الذي يهدم ولا يبني ولا بالحجة التي تنصر الضلال على الحق · ولا بالمدنية الزائفة التي لا ترتكز على اساس الاخلاق المتينة والمبادىء القويمة · ولا أؤمن ايضاً بالثقافة الواهية التي لا تسمو بمدارك الناس ولا تقودهم الى الاعمال المفيدة

المثمرة ·

اني أُرثي لحالة شباب هذا البلد الذين لا همّ لهم غير اشباع شهواتهم وملء بطونهم وتجميل ابدانهم ·

شبابٌ يتنقلون من حانةٍ الى حانة ومن نادٍ الى نادٍ ومن مرقص الى مرقص كأنّ لا شاغل يشغلهم عن الحانات والمراقص ·

شبابٌ خانعون لا يشعرون بذلهم وعبوديتهم اذ لا عزّة في نفوسهم ولا طموح في صدورهم ·

شبابٌ يحسنون لغات الاغيار ويجهلون لغتهم ويتباهون بادب الفرنجة ويحتقرون ادبهم ·

شبابٌ يزدرون بنفوسهم وبتراث اجدادهم ولا يعلمون ·

شبابٌ لا كالشباب ورجالٌ لا كالرجال · يدّعون المعرفة وهم الاغبياء والشجاعة وهم الجبناء والقوة وهم الضعفاء ·

يناديهم الواجب فلا يلبون ويدعوهم الوطن فلا يسمعون وتستصرخهم الانسانية فلا يجيبون ·

هكذا هم معظم شباب هذا الوطن ·

اما شباب الغرب مع ما في الغرب من الاباحة والفساد والطمع وحبّ الاستئثار والفتك بالشعوب الضعيفة الآمنة فمنهم المجاهدون في سبيل قوميتهم وتعزيز اوطانهم · ومنهم السباقون

في ميادين العلم والصناعة والاختراع والمغامرون لاكتشاف اسرار الكون وارتياد الاصقاع . ومنهم المحلقون لدرس خصائص الاجواء ومعرفة ما في الملاء الاعلى من المدهشات . ومنهم العلماء والفلاسفة الانسانيون والادباء والشعراء العالميون الذين يؤلفون ويبتكرون ويشحذون قرائحهم لخير الانسانية ورقيها الصحيح . ومنهم صدر كل علم وفنّ وخبر .

ومنا — ولا شيء منا في هذا الجيل حالة كوننا أولى بالعمل منهم لأننا بحاجة الى كل شيء — الى انشاء وطنٍ واستقلال امةٍ واتحاد كلمةٍ وتثقيف قومٍ وانهاض شعب باسره .

فيجب ان يتبصّر شباب الوطن بكل هذه الامور وان يعتنقوا مبدءاً سامياً في الحياة ويسعوا لتحقيقه . لأن المبادىء السامية هي الشعاع الالهي الذي يهدي الانسانية الى الصراط القويم .

الفصل السابع

الحكيم يرتاد المصايف اللبنانية ويلتقي بليلى وخليلها في الفندق الكبير في صوفر وفي فندق القاصوف في ضهور الشوير

أقبل الصيف بحرّه ولهيبه وأطل تموز ينفث قيظه المحرق على مدينة بيروت جوهرة المتوسط ولؤلؤة الشرق الادنى فابتدأ الموسرون من سكانهـا يصعدون الى جبال لبنان المشهورة بجودة مناخها وطيب هوائها ومائها وفتحت الفنادق ابوابهـا لاستقبال قوافل المصطافين من كل حدب وصوب من ابناء الساحل والداخل ومن مصر وفلسطين والعراق ومن بعض انحاء نجد والحجاز .

اجل ان لبنان في الشرق الادنى هو بمثابة سويسرا في الغرب يؤمه المصطافون وطلاب النزهـة من جميع الاقطار والامصار . فهو ليس فقط مصيف رجالات العرب واحرارهم ومجلى انسهم وراحتهم بل هو ايضاً قبلة المستشرقين من رجالات الغرب ومطمح رواد السياحة وعلماء الآثار .

وفوق ذلك هو الجسر الذي يربط مدنية الشرق بمدنية الغرب ويقرّب بين ثقافتيهما الادبية والمادية .

ان هذا الجبل هو مسقط رأس الحكيم . يصعد اليه كل عام ويقضي اشهر الصيف متجولاً في ربوعه الساحرة .

وفي هـذا العام قضى شهر تموز في مدينة عاليه عروس المصايف اللبنانية وفي القرى التي تجاورها .

وكان كلَّ يوم يسرح متنزهاً في تلك الانحاء فيقطع المسافة القريبة ماشياً تارةً في شوارع عاليه وجاداتها وطوراً في احراجها وغاباتها . اما المسافات البعيدة فكان يقطعها في السيارة فيتجه احياناً الى سوق الغرب وشملان وعيناب وعبيه فيستريح في كل منها ويتنزّه في خمائلها البديعة ويقف مدهوشاً امام روعة مناظرها المختلفة — مناظر الصرود والنجود والقمم والاودية والانهار والجداول والقرى والمزارع والاحراج والحدائق والمدينة والبحر .

وكان يسلك في بعض الاحيان طريق بخشتيه وبحوّاره والغابون وكفرعمي ويحط رحاله في شرتون قرية الالهام والطبيعة الساحرة .

فيرتاح فيها قليلاً ويسرح في حقولها الجميلة ويتمتع بنسيمها البليل وسنديانها الظليل ومائها السلسبيل .

ان كل قرية لا بل ان كل دسكرة في لبنان هي ملهمةٌ

ساحرة سواء أكانت قائمة على رأس الجبل ام في الواد وعلى ضفاف الانهر والسواقي او على الهضبات المنبسطة بين اغراس الكرمة واشجار الزيتون والتين ·

ولما بزغت شمس شهر آب انتقل الى بحمدون ونزل في الفندق القائم بجوار المحطة ·

بقي هناك اسبوعاً كاملاً متجولاً بين اغراس كرومها ومتفيئاً ظلال صخورها ثم قدم بلدة صوفر المصيف اللبناني المشهور ونزل في فندقها الكبير · وبعد ان استراح قليلاً أخذ يتمشى في حديقة الفندق مجيلاً انظاره بكل ما يحيط به من جمال صنع الله وصنع الانسان ·

وفي عصارى ذلك اليوم بينما كان جالساً تجاه الشارع يرقب المارة ويشاهد السيارات الجادة صعوداً والهابطة نزولاً اذا بسيارة تقف امام المدخل الكبير فيترجل منها شاب توسم معرفته ثم تنزل على الاثر سيدة متشحة ثوباً حريرياً ارجواني اللون فعرفها لأول وهلة انها ليلى ·

ورأى الشاب يأخذها بذراعه ويدخلان الفندق ·

وبعد حين نزلا واخذا يتمشيان في الحديقة و كان كل من يراهما ولا يعرفهما يعتقد انهما عروسان جاءا لتمضية شهر العسل

في هذا الفندق الجميل .

وفيما هما يتمشيان في الحديقة ذهاباً وايابا ابصرا الحكيم فأتيا اليه وسلّما عليه .

ثم قالت له ليلى : متى جئت صوفر وهل تمكث طويلاً فيها ؟ وكيف تقضي نهارك هنا ؟

الحكيم — جئت هذا الصباح وسأمكث فقط بضعة أيام في هذا الفندق . اما نهاري فأصرفه متجولاً في ارجاء هذه البلدة متنزهاً في حقولها وبراريها متسلقاً هضابها ونجادها . فانا من روّاد الحقول والجبال ومن عشاق القرى والمزارع . وانت يا ليلى هل تمكثين طويلاً في هذا الفندق ؟

ليلى — سابقى أسبوعاً فقط لان صديقي رأفت دعاني الى هذه النزهة الجميلة وهو يحب صوفر حباً جماً ويرتاح في فندقها الكبير لنظافة غرفه ونخامة اسرّته ولذة طعامه وبما فيه من ضروب الملاهي والمراقص وانواع التسلية وألعاب الرولات والبكارا وخلافهما

الحكيم — وصغارك في بيروت من يتدبر أمرهم مدة غيابك ؟

ليلى — والدهم . أليس من واجباته ان يعتني بهم أياماً كما اعتنيت بهم اعواماً وان يقهر نفسه لاجلهم قليلاً كما قهرت نفسي بسببهم كثيراً

قل لي بحقك أمن العدل بان يتنعم الرجال وحدهم باطايب

الحياة وتحرم منها النساء . لا لعمري .

ان عصر استعباد المرأة وامتلاك حريتها امسى في ذمة الماضي . اما اليوم فليس بوسع الرجل ان يعتبر زوجته آمة . بل هي سيدة نفسها وبيتها كما هو سيد نفسه وبيته . فما يحق له يحق لها وما يتمتع به من لهو وسمر وسياحة تتمتع به ايضاً لانها مثله من لحم ودم وعواطف وشعور لا بل هي أدق منه احساساً واسمى روحاً وارق قلباً .

لقد كان الرجل رأس المرأة في العهد القديم . اما اليوم فصار قلبها اذا كان عصري المبادىء ورشيقاً ناعماً وذنبها اذا كان رجعياً مستبداً ودمياً مكروها .

الحكيم — ليست المسألة بين الرجل والمرأة هي مسألة رأس وذنب بل هي مسألة الواجب المفروض على كليهما . فمن يقوم بواجباته الزوجية والابوية والانسانية فهو الرأس في نظر المجتمع سواء أكان رجلاً أم امرأة ومن يخل بها فهو الذنب في نظر كل عاقل حكيم .

وقد يحدث ان يقوم الزوجان بواجباتهما . فانهما يكونان من رؤوس المجتمع البشري كما انهما يكونان من اذنابه اذا كانا من العابثين المستهترين .

ان من يسعى وراء الاعمال المفيدة فهو الرأس ومن يزاول

الاعمال المنكرة فهو الذنب .

ولما أتمّ الحكيم هذه الكلمات تنطع رأفت صديق ليلى واجابه متهكماً : ليست المسألة هي مسألة رأس وذنب ولا هي مسألة أعمال مفيدة واعمال منكرة ولا مسألة فضائل او رذائل . كل ذلك أوهام من أوهام الناس وقيود من قيودهم .

ان المسألة هي أن يعرف المرء ان يتدبر نفسه ليعيش منعماً مسروراً في حياته القصيرة على الارض .

وما عدا ذلك فلا شيء يفيده في هذا الوجود .

ان الفلسفات الواهية والشرائع الباطلة القائمة على الفضائل والرذائل كلها اضغاث أحلام لا ترتكز على أساس الطبائع الانسانية والغرائز البشرية .

هذا هو معتقد الشباب المثقف في هذا العصر وايمان فتيانه وفتياته .

وكفاك ايها الحكيم نصحاً وارشاداً وامعاناً في التخيلات الصوفية والتأملات الروحية التي لا يأبه لها أحد في هذا الجيل الطافح بالحقائق العملية والامور المادية الصرفة .

الحكيم — أعذرني اذا قلت لك بصراحة انك تجهل حقائق الحياة والطريق المؤدي لهنائها وسعادتها . لأنك لا تزال في مستهل

فتوّتك وهوس شبابك لم يتسنّ لك اختبارها بذاتك وقد يصعب عليك كما يصعب على الكثيرين ان تدبر حياة غيرك ممن تخطّوا الشباب وتتخذ منها أمثولة مفيدة لنفسك ·

ان اعمال الانسان على سطح الغبراء ليست هي اضغاث أحلام كما تعتقد بل هي حقائق ناصعة تلمس نتائجها المتباينة والمتفاوتة في كل منحى من مناحي حياته ·

ولهذا السبب كن واثقاً تمام الثقة بان الاعمال المنكرة على اختلاف انواعها ليست هي طريق الحياة الامينة السعيدة على هذه الارض ·

ويكفيك لتعتنق مبدإي وتعترف بصحة كلامي بان تراجع قليلاً حياة بعض الذين تخطّوا الشباب وكانوا من السكارى او من المتهتكين ومن المقامرين او من المنافقين كيف أمست في الغالب حياتهم عبئاً ثقيلاً عليهم وعلى ذويهم ·

فمن لا يشكو الفقر يشكو مرضاً مستعصياً ومن لا يشكو المتاعب العيلية يشكو من خسران ثقة الناس به ونفورهم من معاملته · انه دائماً يشكو من ابناء محيطه وذويه ولو انصف لشكا من نفسه ومن اعماله فقط ·

فمتى عرفت ذلك وتدبّرت الحياة البشرية من كل نواحيها

يظهر لك عندئذ عملياً لا خيالياً ومادياً لا روحياً ان سعادة الحياة الحقيقية لا توجد الا عن طريق الفضائل والاعمال المفيدة .

انني ارى كثيرين من الناس الذين يزيغون عن طريق الحق ويهيمون في بيداء الإثم ولا يرجعون عن خطاهم الاّ بعد فوات الاوان — ساعة تدركهم الكهولة باثقالها والشيخوخة بضعفها ومتاعبها . فيندمون ولات ساعة مندم .

فعلى الشاب المثقف ان يتعظ بما تقدمه من الناس الذين صرفوا حياتهم في اللهو والمساوىء لئلا يصل في كهولته الى ما وصلوا اليه .

ان حياتهم التاعسة هي افضل عظة وعبرة عند من يتعظ ويعتبر .

ولما انتهى الحكيم من كلامه قال له رأفت :

لا يهمني لا قليلاً ولا كثيراً ما وراء طور الشباب من المشاكل والمتاعب ما زلت معتقداً ان لا لذة في الحياة بعد الشباب ومتى فقد المرء شبابه فسيان عنده الحياة او الموت .

وكانت ليلى تظهر اغتباطها ورضاها في كل كلمة يتلفظ بها حبيبها . ثم ودّعا الحكيم ورجعا يتمشيان في ارجاء الحديقة .

وبعد قليل ركبا سيارة وذهبا للتنزه ولم يرجعا الى الفندق

الاّ ساعة العشاء .

وفي الساعة العاشرة ابتدأ الرقص في البهو الكبير فرأى الحكيم ليلى وخليلها يرقصان مع الراقصين ثم نظرهما يدخلان مائدة الميسر ويلعبان مع اللاعبين .

هكذا كانا يصرفان الايام في هذا الفندق بين القصف واللهو والرقص والمقامرة .

****

انتقل الحكيم من صوفر الى مصيف حمانا الجميل وقضى بضعة ايام في فندق الشاغور امام الشلاّل الرائع . وكان كل يوم يتنقّل في تلك الخمائل البديعة والرياض الغنّاء .

وفي اواخر شهر آب صعد الى ضهور الشوير المصيف اللبناني المشهور في احراجه وغاباته وفي مناظره الخلاّبة التي لا مثيل لها .

فنزل في فندق القاصوف الجميل القائم على تلّة من تلال تلك البقعة الفاتنة التي تعدّ بحق جنة من جنان الخلد .

مكث هناك شهراً كاملاً وكان على عادته يذهب كل يوم للتنزّه في ارجاء تلك البلدة وفي القرى المحيطة بها .

وفي اصيل يوم من ايام الآحاد بينما كان عائداً من نزهته مرّ في ساحة الفندق الواسعة ليرى مقعداً فارغاً يجلس عليه .

وكانت تلك الدار الفسيحة في تلك الاونة مزدحمة بالناس فرأى ليلى وخليلها جالسين الى مائدة يكرعان الوسكي . فمرّ امامهما وحياهما بالاشارة لا بالكلام ثم جلس الى مقعد بعيد يشرف على الجادة وعلى اجمل ما تقع العين عليه من مناظر الطبيعة الخلاّبة . وكان يسرّح طرفه تارة في هذا الكون اللامتناهي وطوراً في تلك الجماهير الجالسة الى موائد الشراب وفي امراب المتخاصرين والمتنقلين ذهاباً وايابا في صحن الفندق وعلى شرفاته الفسيحة .

وانه لكذلك اذ بليلى تأتي اليه وتجلس الى جانبه وعلائم الابتهاج بادية عَلَى محياها . وعوامل الغرام مرتسمة على جبينها وعينيها وقد امتلكتها سورة الراح .

وكان خليلها في تلك الساعة يراقص احدى السيدات التي كانت جالسة بالقرب منهما .

فبادرت الحكيم بالكلام قائلة وهي تشير بيدها :

تأمل هذه المرأة اللابسة الثوب الرمادي فهي خليلة هذا الشاب الذي تراقصه مع انها عقيلة احد اغنياء المدينة وزوجها من افضل الرجال خلقاً وخُلقاً ومن اشرفهم محتداً .

وهذه ايضاً المرتدية الثوب الازرق السماوي التي تراقص هذا الشاب المتأنق هي عقيلة احد كبار الموظفين الذين يكسبون

معاشاً طيباً ويشغلون مركزاً خطيراً في الهيئة الاجتماعية . وفضلاً عن ذلك فهي كثيرة الطيش والعهر تعلق الشباب واحداً أثر واحد . واحياناً لا تكتفي بهم فتهيم بالفتيان المرد من رفاق ابنائها الذين هم دون العشرين وبعضهم دون ابنائها سناً .

وتلك الجالسة تجاهك برفقة بعلها اللابسة الثوب العنابي تراها تتظاهر بالعفاف لكنها بالحقيقة من اخبث النساء ومن اشدهن عهراً .

وهذه الجالسة الى يمينك برفقة عيلتها فهي ليست فقط عاهرة بل قوية فاجرة ومستبدّة قاهرة . يئن منها زوجها واولادها وخدّامها ويتجنّبها في بيروت كل من يتعرّف اليها لشدّة مساوئها وشراسة اخلاقها .

اما الجالسة الى شمالك . فكم كنت اتمنى ان تتعرّف الى بعلها . فهو رجل طيّب القلب والضمير وحسن الخلق والخلق وغنيّ بماله وعقله وادبه . وهي مع ذلك تخدعه وتخونه كلما سنح لها الوقت .

على ان زوجها مع شدّة تظاهرها بمحبته وتعلّقها الشديد به ابتدأ يشكّ فيها لكثرة لغط الناس في سلوكها المعيب . وسيفتضح امرها قريباً .

اما تلك الجالسة بعيداً المتسترة بنقابها الاسود فوراء النقاب ما وراءه من الاباحة والتهتك .

ان معظم الناس في هذا العصر الفاسد يسلكون طريق الفحشاء فكيف تلومني اذن ايها الحكيم بل كيف تحتقرني وتمرّ امامي دون ان تكلمني .

فاذا اتيت المنكر وعشقت رأفت فذلك لأن زوجي لا يستحقني فلو كان رجلاً فاضلاً لما كنت اخونه كما تخون تلك النسوة رجالهنّ الافاضل .فهو من فرط سكره وتهتكه وقساوة قلبه رمى بي الى حضن هذا الشاب .

أما هنّ فقل لي بحقك مَن رماهنّ باحضان عشاقهنّ غير طيشهنّ ؟

ان الفرق بيني وبينهنّ كالفرق بين السماء والارض وبين النهار والليل .

الحكيم — يا ليلى انك تتحلين الاعذار لاعمالك المنكرة لكن الضمير والوجدان لا يقبلان لك عذراً .

فعليكِ ان تسلكي طريقاً غير التي تسلكينها ولا تحفلي بما تعمل بعض النساء .

ان طريق العمل المفيد خير من طريق العمل المنكر والطلاق

في الحالة التي وصلت اليها خير من البقاء مقيّدة بقيود الزواج الأثيم

فمهما كان السبب الذي اوصلك الى العبث والمجون عظيماً فمحبتك لرأفت واستمتاعك به على هذا الشكل المعيب ليس فقط يُعد عهراً بل خيانة ايضاً لرابطة الزواج التي لا تزالين مرتبطة بها.

وعلى افتراض انك تودّين التخلص منها فهل يمكنك ان تتخلصي من روابط الحياة الانسانية جميعها.

أليست الحياة منذ بدئها كلها روابط وضوابط ؟

رابطة الابوّة والبنوة ورابطة العيلة والزواج.

ورابطة الجنس والدم ورابطة الاديان والاوطان.

ورابطة اللغات والثقافات ورابطة الاحياء بالارض.

ورابطة الارض بالنظام الشمسي ورابطة الاكوان بعضها ببعض.

أليس كل منها بحدّ ذاته يدلّ على رابطة الجزء بالكل ورابطة الكل بالقوّة المبدعة التي ندعوها الله.

فمتى كان الامر هكذا أفلا تعتقدين اننا لا نقدر ان نعيش على هذه الارض بلا روابط ولا ضوابط. وكل ما يمكننا عمله ان نسعى لننزع عنا الروابط التي تضيرنا وليست صالحة لجيلنا ونتقيّد بما يفيدنا ويزيدنا سموّاً وادراكا.

ولما انتهى الحكيم من هـذا الكلام جاء رأفت وحيّاه ثم ودّعه واخذ ليلى بذراعه . وذهبا الى مكانهما .

ولما انتصف الليل صعد الحكيم الى فراشه وقبل ان يستولي عليه الكرى جال جولة في بعض مشاكل الناس الاجتماعية المتأتية كلها من عدم اتزانهم بسبب شذوذهم المادي والادبي . وتأسّف كثيراً لأفلاس الشرائع الحالية وعجزها عن تسيير دفة الباخرة الانسانية الى المرفأ الامين .

أما ليلى وخليلها فبقيا ساهرين على مائدة الشراب والمقامرة برفقة بعض الشبان والشابات الى الهزيع الاخير من الليل .

وفي اليوم الثاني بينما كانت ليلى تتناول الغداء مع خليلها دخل عليها احد جيرانها في بيروت واخبرها بان ثاني أولادها مصاب بالحمى منذ ثلاثة ايام ونصح لها العودة الى بيتها حالاً لتعتني به قبل أن يحدث ما ليس بالحسبان .

فلم تحفل كثيراً بقوله . ولم يبدُ على ملامحها حنان الامهات ولا لهفتهنّ البريئة نحو اطفالهنّ حتى انها لم تسأله عن سبب مرض ولدها ولم تجبه غير كلمة واحدة : غداً اعود اليه .

غير انها بالحقيقة لم تترك الفندق الاّ في اليوم الثالث بعد معرفتها بمرضه .

الفصل الثامن

سلمى تزور الحكيم وتقص عليه بعض حوادث ليلى الجنونية
وتخبره بوفـاة ولديها وزوجها وعدم مبالاتها بموتهم

سلمى – جئتك ايها الحكيم الآن ليس فقط لتأدية الزيارة الواجبـة لشخصك الكريم بل لأقص عليك ايضاً بعض حوادث جارتي ليلى التي يهمّك امر اصلاحها ولأخبرك مفصّلاً عن كل ما جرى لها في الشهر الماضي ·

في اواخر شهر آب أُصيب بهجت ولدها الثـاني في داء التيفوئيد · وكانت فور مرضه غائبة عن بيتهـا تتنقّل متنزهة في اماكن الاصطياف برفقة احد فتيان هذه المدينة غير حافلة بزوجها ولا باولادها ·

وقد بعثتُ اليها رحمةً بولدها من يفتّش عنها في فنادق الجبل فعثر عليها في فندق القاصوف في مصيف ضهور الشوير · واخبرها بمرض ولدها وشدّة وطأة الحمى عليه ووجوب اسراعها بالحضور الى بيروت لاجل الاهتمام بامر معالجته وخدمته خصوصاً لأنهـا تعلم حالة زوجهـا الذي لا يُتكل عليه بمثل هذا الظرف

القـاهر .

بيد انها لقساوة قلبها بل لشدّة طيشها لم تقصد ولدها الاّ بعد مرور ايام من معرفتها بمرضه .

و كانت الحمى في ذلك الحين قد امتلكته امتلاكاً وارهقت جسده ارهاقاً حتى امسى في ساعة اشتدادها يغيب عن الوعي ويستسلم الى الهذيان .

ان بهجت ذلك الولد الجميل المسكين الذي كنت تشاهده مراراً عندي وربما لا تزال تتذكر طلعته الوسيمة قضى نحبه ضحية الاهمال وعدم الاكتراث .

لقد ناشدت والدته بعد رجوعها الى البيت كي تعتني به جد الاعتناء والحت عليها كثيراً بوجوب ادخاله احد المستشفيات فلم تعر كلامي انتباهاً .

و كانت فوق ذلك لا تجلس الى جانبه ولا تهتم بتمريضه الا قليلاً وتقضي معظم نهارها لاهية خارج بيتها .

ان ليلى تحيرني ايها الحكيم بقساوة قلبها واستغرب جداً كيف صدرت منها كل هذه القساوة و كيف طاوعها قلبها بأن تترك فلذة كبدها طريح الفراش تنهشه الحمى نهشاً وهي تلهو بعيدة عن سريره .

ولما رأيت الولد يزداد سوءاً ويتلاشى نفساً إثر نفس كررت عليها القول بوجوب ادخاله الى المستشفى حالاً وتوسلت اليها قبول نصيحتي رحمةً بولدها .

فأجابت بعنتٍ شديد : ليس لديّ مال لأضعه في الدرجة الاولى ولا الثانية ايضاً . وانت تعلمين كيف اضاع والده ثروته كلها على ملذاته واهوائه وهو وحده مسؤول عن حرمان ولده كل ما يلزمه من المداواة وحسن المعالجة .

فقلت لها : لا بأس ضعيه في الدرجة الثالثة فبأي درجة كان هناك ارجى له من البيت .

فاستشاطت غضباً من كلامي واجابتني بحدّة مقرونة بالعجرفة والتهكم :

هل يضع مثلي ولده في درجة الفقراء والمعوزين ؟ انك لا تجهلين مقامي في الهيئة الاجتماعية فأولى بي ان يموت ولدي ولا انزل مقدار ذرّة عن مقامي .

فجرّبت كثيراً ان اقنعها بان مقام المرأة مرتكز على حسن اعمالها لا على تبجحها وغرورها وتعلّقها بالأباطيل . لكنها لم ترعوي لنصحي وبقيت مصرّة على عنادها .

فعندئذ ذهبت الى زوجي ورجوته بان يدفع نفقة المستشفى

عن هذا الولد المسكين بالدرجة الاولى رحمةً به وشفقة عليه .

ثم عدت اليها في اليوم الثاني وبلّغتها ذلك فرفضت في بادىء الامر قائلة: انها لا تريد ان تستجدي احداً . فاجبتها ان القيمة التي سندفعها عنكِ ليست من باب الاستجداء بل تعتبر ديناً عليك تدفعينه عندما تقدرين . فقبلت بذلك بعد الجهد . وذهبنا معاً وادخلنا الولد الى المستشفى .

ولما عاده الاطباء هناك صرّحوا لوالدته ولي انه بحالة التلف الشديد وقد يصعب عليهم كثيراً انقاذه من براثن الموت . فلو جيء به الى المستشفى قبل الآن لكان امر شفائه ممكناً .

فتوسلت اليهم بأن يضاعفوا جهودهم واعتنائهم به لعلهم ينقذون حياته . فقالوا اننا هنا نقوم بواجباتنا خير قيام لكننا لسوء الحظ لا نجترح العجائب .

عاش الولد في المستشفى بضعة ايام فقط وكانت والدته لا تقضي بقربه الاّ ساعة أو ساعتين في النهار حتى انه قبيل وفاته ببضع ساعات صحا صحوة الموت . فطلب امه بالحاح من القائمة بأمر تمريضه ودمعت عينه لعدم وجودها قرب سريره .

أما تلك الام القاسية القلب فلم تصل في ذلك اليوم الى

جانبه الاَّ بعد ان ملكته الغيبوبة وابتدأ يلفظ انفاسه الاخيرة ·

****

مات ولدها فبدت في يوم مأتمه كأنها لم تفقد ولداً بل كأنها لم تكن اماً لهذا الولد · ولم اسمعها تتكلم امام أفواج المعزّين الاَّ كلام السخط واللوم على زوجها وإلقاء تبعة موت الولد عليه وحده · كأنها قامت بواجبات الامومة وهو وحده لم يقم بواجبات الابوّة ·

فاذا كان طيشها القى غشاوة كثيفة على بصرها وقلبها حتى امست لا تشعر ولا تنظر قبح اعمالها · فهل امات ايضاً ضميرها ووجدانها وارتاحت من تبكيتها ؟ لا أدري · وكل ما أدري أنها لكثرة شرحها وتكرارها كلام السخط على زوجها اجابتها احدى السيدات الفاضلات : اننا جئنا الآن لنؤدي واجب التعزية لكِ لا لنسمع منك مثل هذا الكلام الذي لايجدي نفعاً · فما عليكِ سوى أن تقنعي بما قسمه الله لك واحرصي على ولديكِ الباقيين على قيد الحياة لأن من واجبات المرأة الحرص على صحة أولادها قبل الرجل ·

****

يقولون ايها الحكيم : ان المرء يتعلّم من التجارب لكن

هذا المثل لا ينطبق على ليلى لأنها بعد دفن ولدها . « عادت حليمه الى عادتها القديمه » . اجل عادت الى عبثها ومجونها والى التمرّغ في حمأة رذائلها والى عدم الاكتراث لولديها وبيتها .

و كأن العناية ارادت ان تنتقم منها أيضاً أو كأن نواميس الوجود تعيد اليها ما تمنحه لغير المستحقين فلم يمضِ اسبوعان فقط على وفاة ولدها حتى فوجئتُ صباح يومٍ بخبر هزّني هزّاً ولم أزل حتى الآن أرتجف ارتجافاً عند ذكراه . ألا وهو وفاة ولدها الصغير مدهوساً تحت عجلات القطار الكهربائي .

لقد ارتعبت ايها الحكيم عندما نظرته على قارعة الطريق مقطّعاً تقطيعاً . أجل ان مشهد اشلائه المبعثرة هنا وهناك لما يفتّت قلب الجماد فكيف بقلب المرأة .

و كانت والدته في تلك الساعة الرهيبة قد خرجت من بيتها على عادتها ولم يكن هناك غير والده الذي وقع مغشياً عليه عند مشاهدته ولده بتلك الحالة المرعبة . فاهتممت بنقله الى بيته وبعثت استدعي له طبيباً يعتني بامره

اما اشلاء الولد فقد نقلها الشرطة الى مستشفى الحكومة لاجل اجراء المعاملات القانونية .

****

ثم اسرعت الى بيت ليلى لأرى ماذا جد على زوجها فكان الطبيب الذي استدعيته قد حضر لعيادته . فاخبرته عما حلّ بهِ وعن سبب اغمائه . وبعد ان اسعفه ببعض المنعشات وانتهى من فحصه سألته عنه : فأجابني : ليس كما يجب واخشى عليه من هول هذه الصدمة ان يقع بالفالج الذي هو معرّض اليه بسبب ضعف حصانته وعدم مناعة جسمه . وذلك كله متأتٍ من شدة افراطه في حياته .

ثم ناشدت أحد الجيران ليرتاد جميع انحاء المدينة باحثاً عن ليلى كي يخبرها عما حل بعيلتها لتعود سريعاً الى بيتها . فقضى نهاره وهو يتفقدها في كل مكان دون ان يعثر عليها . لأنها كانت في نزهة خارج المدينة ولم تعد الى منزلها الاّ بعد غروب الشمس .

ويظهر انها عرفت من الجيران ما حلّ بولدها قبل دخولها البيت . لانها دخلت هائجة مائجة ترغي وتزبد وتلعن الحياة والله وزوجها وسائق القطار الكهربائي . وكنت في تلك الساعة بجانب سرير زوجها قائمة بتمريضه . فهرولت اليها متوسلة بان تخفّف من حدّتها قليلاً شفقةً على زوجها الذي امسى من هول النكبة عَلَى شفير الموت . ورجوت منها أن تتسلح بالحكمة

والتوءدة في مثل هذا الظرف القاهر . فلم تزدد الاّ صراخاً وعربدةً على المريض الفاني وعلى جميع الناس .

ولم انجُ انا ايضاً من شتائمها وبذاءة لسانها فوجدت من الحكمة تركها وانصرفت الى منزلي .

****

وبعد مرور ساعة جاءت اليّ متشحةً ملابس الحداد وطلبت مني ان ارافقها الى المستشفى لاجل الاهتمام بنقل جثمان ولدها الى البيت . فنزلت عند طلبها .

وهناك سألنا عن الولد فقادنا احد الخدم اليه .

ولما اقتربت والدته منه ورأته هيكلاً مرعباً واشلاءً محطمةً تحطيماً استولى عليها الذعر الشديد وألوت راجعة وهي تشهق بالبكاء وتلطم صدرها ورأسها .

أجل ان ذعرها الشديد عند رؤية هيكله المرعب كان والحق يقال أشد وقعاً على قلبها من حزنها عليه .

كلّفنا ادارة المستشفى مسألة نقل جثمان الولد الى البيت ودفعت عنها هناك كل النفقات المتوجبة عليها وثمن التابوت أيضاً .

وفي اليوم الثاني دُفن هذا الولد العاثر الحظ في جانب أخيه أما زوجها فلم يعش بعد ولده الاّ بضعة ايام فأُسلم الروح في

الصباح ودُفن في المساء . لأنها لم تشاء أن تبقيه الى اليوم الثاني كما يُبقي الناس موتاهم بل اصرّت على دفنه حالاً زاعمة انها بعد فاجعة ولدها أمست منهوكة لا تقوى على مشاهدة جثمان زوجها ولا على احتمال الاحزان المتعاقبة عليها .

وفي هذه المرة قدّرت بنفسي ان ليلى بعد ان أصابها من هول النكبات ما أصابها سترجع ولا شك عن ضلالها .

ولكن خاب ظني لأنها لم تبق في بيتها غير ايام معدودة مع اني لم أدعها وحدها طيلة وجودها في منزلها . بل كنت اذهب دائماً اليها لأجل تسليتها وغرس بذور الرجاء في قلبها . وكنت أرى ولدها الوحيد جالساً الى جانبها هزيل الجسم كئيب النفس كسير القلب . وقد اوصيتها بان تعتني به وتكرّس حياتها لأجله . لانه أملها الوحيد في هذا العالم . ونصحت لها بالعدول عن سلوكها الشائن الذي افقدها روحها الطيّبة . وكان السبب لنكباتها وبلاياها .

كرّرت لها النصح والارشاد فكنت كمن يصرخ في واد أو يكلّم الجماد .

والآن ارجو منك ايها الحكيم ان تذهب اليها وتبذل قصارى جهدك لأصلاحها شفقةً عليها وعطفاً عَلَى ولدها

المسكين لعلّها بعد ما عانته من التجارب المرّة القاسية تقوى على ذاتها فتتحرّر من الاثم وتهتم بامر وحيدها .

ان كلامك ولا شك أوقع في نفسها من كلامي وعظاتك ابلغ من عظاتي . فما أنا تجاهك الاّ طالبة قاصرة اجني المعرفة والخبرة من نتاج ذهنك واستمد الخلال الحميدة من أدب نفسك .

الحكيم — لقد تأثرت كثيراً لوقوع هذه الفواجع المؤلمة على ليلى ومما زاد حزني عليها انقطاع رجائي من امر اصلاحها . لأنها كما تقولين لا تزال جادة وراء حياة العبث والمجون بالرغم من وقوعها بهذه الفواجع .

انني اعرف الطبيعة البشرية يا سلمى ومسالك نزعاتها المختلفة ولهذا السبب اصارحك القول : ان من كان مثلها لا يتعلّم من التجارب ولا يرعوي من الفواجع فهو مائت الضمير والوجدان ولا رجاء منه . وهذا كله لا يمنعني من ان اقوم بواجباتي نحو ليلى . فغداً اعودها معزّياً وناصحاً ومرشداً كما ترغبين وسأعمل كلما بوسعي لأجل انقاذها من المفاسد ولو كنت معتقداً بان ذلك من المستحيل .

لان من لا تفعل به الضربات والفواجع لا يفعل به الكلام ولا توثر به العظات

الفصل التاسع

الحكيم يزور ليلى ويعزّيها بوفاة ولديها وزوجها ويزوّدها النصائح اللازمة

في صباح اليوم الثاني بكّر الحكيم بالذهاب لزيارة ليلى ليدركها قبل خروجها من البيت وكانت عند دخوله لا تزال نائمة . فاستقبله ولدها وهو على أهبة الخروج الى المدرسة . فاخذ يزوّده بعض العظات اللازمة للطلاب كحفظ النظام واحترام القانون والاجتهاد في طلب الادب والعلم ليكون من الرجال اللامعين في الغد ثم حضه على اكرام والدته واساتذته وطلب منه ان ينصرف الى مدرسته كي لا يفوته وقت المدرسة . وبقي في الدار منتظراً ليلى الى ان استيقظت وجاءت اليه .

فبادرها بالتحية وبتقديم واجب العزاء على ما حلّ بها من المصائب . واظهر لها بارق العبارات عن شدة التأثر الذي استولى عليه عندما بلغه اخبار هذه الفواجع المؤلمة

فشكرت له ليلى افتقاده اياها وراحت تسرد له كيف خسرت ولديها وزوجها في خلال شهر واحد . وقد تبسطت في

شرح حادثة ولدها الصغير الذي قضى نحبه تحت عجلات القطار الكهربائي وكانت الدموع تترقرق على خديها وعلائم الهلع بادية على وجهها كأنها تخيّلت في تلك الساعة هيكل ولدها المرعب بُعث من قبره وظهر امامها .

فهدّأ الحكيم روعها برقّة كلامه وطلاوة اسلوبه ثم اخذ ينصحها قائلا : يا ليلى ان التجارب في هذه الحياة الدنيا واقعة على جميع الناس لا يخلو منها عظيم ولا حقير ولا غني ولا فقير . واللبيب هو الذي يعرف أن يتدبّرها بالحكمة والصبر ويتّخذ منها امثولة مفيدة لنفسه .

فما الضربات والفواجع التي تقع على الناس سوى عظة من عظات تجارب الحياة وعبر من عبرها الرائعة .

يا ليلى : لا اجهل وطأة الخطوب التي ألمّت بكِ ولا شدّة قساوتها لأنها سلبتك زوجك وولديك اللذين هما من اعزّ وأثمن ما تملكينه في هذه الحياة . فما عليك الآن سوى السهر المتواصل والحرص الشديد على سلامة ولدك الوحيد وهذا أمر متيسر لك لقد شاهدته ساعة وصولي وحدّثته ملياً فرأيته ذكي الفؤاد وحسن الاستعداد لا ينقصه غير عنايتك .

فاصرفي جلّ اهتمامك به لأن راحتك متعلّقة براحته

وسعادتك بسعادته واعلمي ان لا لذّة للأُم في هذا الوجود اشهى لها من لذة سعادة أولادها ·

يا ليلى : لا أزيدك علماً عندما اقول لك ان الجمال المادي هو عارض يزول متى زال الشباب ولا يرافق المرأة في جميع أدوار حياتها غير جمال أخلاقها وحسن صفاتها ·

كل ما ارجوه منك الآن أن تتفقّدي ذاتك الهيولية كل يوم وتتأملي تأمل المدقق الباحث في تقاطيع وجهك وفي كل عضو من اعضاء جسدك فعندئذٍ يظهر لك جلياً انك من زمن ابتدأت تخسرين شيئاً فشيئاً جمالك الذي هو رأسمالك المادي لان ورائك أمست معظم ايام صباكِ ولم يبق امامك منها الاّ اليسير ·

لقد أطلّت عليك الكهولة وغـدت منك على قاب قوسين والكهولة يا ليلى لا تدع سحراً في العيون ولا نضارة في المحيّا ولا رشاقة في القوام · فهل تعتقدين ان الذي ينشد جمالك اليوم لا يجفوك في الغد ويعلق غيرك ·

فاذا شئت أن لا تُنبذي في المستقبل نبذ النواة اعملي منـذ الآن كلما بوسعك لاكتساب جمال الاخلاق و جمال الفضائل ·

واذا كنتِ ترغبين في الزواج فالفضيلة هي وحدها تقودك الى من يطلب يدك ·

واذا شئت أن تربحي ولدك وتكسبي قلبه وعطفه في الغد وتحصلي ايضاً على محبة الناس واحترامهم فالفضيلة هي ايضاً تساعدك عَلَى اكتساب ولدك وتجعلك محبوبة ومحترمة من الجميع .

واذا شئت حاجة من حاجات الحياة فثقي بان الفضيلة هي التي تسهّل امامك الوصول الى حاجاتك كلها .

لأن الفضيلة ما هي بالحقيقة الاّ نتيجة الجهاد المثمر المفيد .

ان عمل الخير فضيلة وطلب العلم فضيلة و كسب الرغيف بعرق الجبين فضيلة ونصرة الحق فضيلة .

اما رأس الفضائل فقائم بقوّة الانتصار على النفس و كبح جماح اهوائها ونزعاتها الباطلة .

ومما لا جدال فيه . أن الكبت شرٌّ ولكن اعطاء الشهوات مداها اكثر شرًّا من الكبت لأنها تتناول التعدي على الغير .

فلتكن اذن عقيدتك الراسخة في الحياة عقيدة الانتصار على النفس ولتكن هذه غايتك القصوى لأن الانتصار على النفس يفتح امامك جميع ابواب الفضائل الانسانية .

والآن اودّعك على أمل اللقاء بك كما يشاء الضمير الحيّ لا كما تشاء النفس الامارة بالسوء .

****

الفصل العاشر

الحكيم يزور سلمى فتقص عليه بعض اخبار ليلى وتأثرها الشديد عندما تركها خليلها واستسلامها للعهر نكاية به وهجران ولدها لها بسبب فحشها

جاء الحكيم لزيارة سلمى فتلقّته بكل حفاوة وترحاب واخبرته انها كانت مزمعة ان تزوره مساء اليوم مع زوجها لأنها منذ نصف عام لم ترَ شخصه الكريم ولم تأنس بحديثه المفعم بالحكمة والاخلاص .

فسألها فور وصوله عن صحة زوجها وولدها فأجابته : انهما على غاية ما يرام . زوجي في عمله وولدي يلعب في فناء الدار . انظر اليه من هذه النافذة لقد كبر واصبح يتكلم جيداً ويعبّر بلغة مفهومة عن كل ما يشاء .

سأدعوه اليك فترى منه ما يسرّك ويشرح قلبك .

ثم قامت ودعت ولدها وجاءت به الى الحكيم فأخذ يلاعبه ويحادثه احاديث الاطفال فرآه نبيهاً على رغم طفولته فهنّأ والدته به ودعا له بطول البقاء .

ثم بدأ يسألها : كيف جارتك ليلى وولدها ؟ هل أدّبتها التجارب وغيرت شيئاً من سلوكها ؟

فأجابته : مسكينة ليلى ايها الحكيم ليتها باقية على حالها بل زادت كثيراً عما كانت عليه من العبث والمجون وأمست لا يهمّها أمر من امور الدنيا غير اشباع شهواتها البهيمية .

لقد كانت سابقاً عالقة بذلك الشاب الذي تعرفه . أما الآن فأمست تعلق كل يوم شاباً جديداً وصار بيتها كالمواخير بؤرة للفساد والرذائل .

ويخيّل اليّ ان السبب الذي أوصلها الى هذه النتيجة الوخيمة هو ترك خليلها لها .

منذ اكثر من اربعة أشهر ابتدأ الخلاف يدبّ بينها وبينه سمعتهما مراراً يتخاصمان ويتبادلان الشتائم ويتعايران تعايراً سافلاً .

هي تتّهمه بحب بعض النساء وهو يتّهمها ببعض الشباب . هي تعيره بالخيانة والفسق وهو يعيرها بمثل ذلك واقبح من ذلك .

ثم اخذت تزداد شقة الخلاف بينهما سريعاً . فلم يمضِ شهر حتى تعاركا عراكهما الاخير الحاسم .

وكنت من حضور تلك المعركة المخزية التي استعرت جذوتها بينهما في اوائل الليل فسمعت من نافذة بيتي التي تطل عليهما كيف ابتدءا في النزاع . سمعت اولاً لوماً عنيفاً وعتاباً شديداً من الفريقين ثم صياحاً وعربدة منهما ثم تهديداً ووعيداً ثم ضرباً بالكراسي والاواني البيتية التي سمعت دوي تكسيرها على الارض فعندئذٍ اسرعت اليهما لعلي اضع حداً لعراكهما .

فدخلت البيت فرأيت ثورةً من ثورات الجنون مستولية عليهما . لا ثورة عادية من ثورات الغضب والحماقة .

وكانت عينا كلٍ منهما تقدحان شرراً ونار اً .

وكانا يتلاكمان بالأيدي ويتضاربان بالأرجل وببعض الاواني البيتية القريبة التناول منهما بكل قسوة وفظاعة كأنهما لم يكونا يوماً متحابَّين ولا خليلين بل خصمين من اشدّ الخصوم .

لقد حاولت كثيراً ان اضع حدًّا لنزاعهما فدخلت بينهما مزاراً واحتملت كثيراً من ضرباتهما الموجعة دون جدوى .

ثم جاء بعض الجيران وبذلوا كل جهودهم لاخماد جذوة النزاع بينهما . وكانوا كلما اخمدوها قليلاً لا يلبث احدهما ان يسعرها عن جديد فترجع اشدَّ ضراماً واكثر خطورة وعنفاً .

واخيراً حضر الشرطي وتدخَّل بالامر واقتادهما الى الدائرة

بعد ان كانا مهشّمين .

ومنذ ذلك الحين انقطعت كل علاقة بينها وبينه وقد بلغني انها ناشدته كثيراً ليعود اليها . فلم يعرها التفاتاً .

ولما انقطع رجاؤها منه جنّ جنونها وامست هائجة لا ستقر على حال .

الحق اقول لك ايها الحكيم انني لم ارها بحالة التأثر الشديد عندما فقدت زوجها وولديها كما رأيتها بعد ترك خليلها لها .

لقد شاهدتها بنفسي في كلتا الحالتين فلم تكن بفقد اعزائها مضطربة هذا الاضطراب ولا متوترة هذا التوتر ولا يائسة هذا اليأس .

انها ظلت من شدة حرقة قلبها وانانيتها اكثر من شهر تبكي بكاءً مرّا . وتدعو على خليلها وتلعنه بافظع اللعنات .

وطالما سمعتها تعد النفس بالثأر منه .

لقد سعيت كثيراً لتهدئة روعها وكم وكم قلت لها : عليكِ ان تعتقدي ان العناية الالهية قد دبرت هذا التدبير لتهتمي بأمر نفسك وامر ولدك . فاشكري الله على ذلك وانزعي من قلبك عوامل اليأس وفكرة الانتقام .

وكانت كلما سمعت مني هذا الكلام تهزّ رأسها وتزداد

سخطاً ووعيدا ·

بيد انها لم تنتقم من خليلها بل انتقمت من نفسها · لأنها منذ ذلك الحين استسلمت بكليتها للعهر نكاية به وفاتها انها لا تنكي بذلك غير نفسها ولا تؤذي غير جسدها ·

ومما زادني تأثيراً ايها الحكيم وملأ قلبي حزناً واسى موقف ولدها منها · وهو كما تعلم لم يبق حدثاً بل اصبح يافعاً يدرك الخير من الشر ·

سمعته مرة يقول لها بلهجة مؤثرة :

لقد كبرت يا ماما ولست احتمل بعد اولاد الجيران ولا اللحام والبقال وغيرهم يدعونني على اتفه الاشياء : يا ابن الزانية ويحتقرونني جد الاحتقار ·

أليس لباقي الاولاد امهات مثلي ! لماذا اتعير وحدي بك ولا يتعيرون بامهاتهم ؟

انهم ليسوا اشد ذكاءً مني ولا احسن سلوكاً ولا هم ايضاً في دروسهم اكثر اجتهاداً ·

لماذا ينظرون اليَّ نظرة الازدراء كأني دونهم وأنا لست دونهم بشيء ·

فأجابته امه : ان الحسد يا بني هو الذي يجعل بعض الناس

يقفون منا هذا الموقف العدائي . اشتم من يشتمك وكن رجلاً لا ينام على الضيم .

فاجابها الولد : وكيف يحسدنا الناس ونحن فقراء لا حول لنا ولا طول ؟ انني اشعر اننا من المحتقرين لا من المحسودين .

وسمعته مرة اخرى يقول لها هكذا :

ما السبب لكثرة مجيء بعض الرجال الى بيتنا ؟

لماذا تقابلينهم بالترحاب وترافقينهم الى السوق وتتنزهين معهم في كل مكان !

أليسوا هم السبب الذي يجعلك موضع الارتياب !

اتوسل اليكِ يا اماه عدم الاحتفاء بهم وتجنّب معاشرتهم .

وبقيت ليلى ايها الحكيم سالكة طريق الفحش على الرغم من توسلات ولدها لها وظلت تستقبل الخالعين في بيتها وترافقهم حيث يشاؤون .

ان سلوكها الشائن اوجد سوء التفاهم بينها وبين وحيدها ثم استفحل الخلاف بينهما سريعاً على إثر ما رآه بأم عينه .

فجاء اليّ يوماً وهو على اشد ما يكون من الاضطراب والاكتئاب وقال :

انني اعدّك ايتها الجارة الفاضلة بمثابة امٍّ لي ولا انسى

ابداً جزيل فضلكِ عليَّ وعلى اخويَّ الفقيدين وعنايتك القصوى بنا اكثر من الوالدة التي كانت ولا تزال تقضي نهارها خارج البيت .

لقد جئت الآن لابوح لك بما انت تعرفينه عن الوالدة اذ لا سبيل لأنكاره . ولأطلب معونتك لاجل مخاطبتها بكل صراحة للاقلاع عن سلوكها المعيب .

لأنني لست اقوى بعد على البقاء الى جانبها اذا لم ترتدع عن معاشرة السفلاء والخالعي العذار .

وقد صرَّحت لها مراراً هكذا : اذا شئت يا اماه ان تبقني بحوزتك وتكسبي حبي واحترامي الدائمين فعليكِ ان تتجنبي كل ما يحط من قدرك وقدري . فلا تكرهيني على ان اتركِ وشأنك واهيم في بلاد الله قاطعاً كل اخباري عنك لأنني صرت شاباً لا يمكنني ان احتمل عارك واعيش بقربك .

ثم صمت هنيهة وعاد يحدثني قائلاً :

و كيف اقدر ايتها السيدة الفاضلة ان احتمل عارها وفي كل يوم اسمع عنها كلاماً فظيعاً لا يقبله حتى عديم الاحساس .

لقد كنت البارحة في المدرسة ألعب مع بعض رفقائي فسألني احدهم عن والدي فأجبته انني يتيم الاب فسمعت طالباً

من ابناء جيراننا يجيبه على الفور :

لكلّ منا أب واحـد أما أنت الذي تدّعي اليتم فلك آباء عدّة يختلفون الى بيتك ويغدون ويمسون فيه .

أليس الموت عندي افضل من سماع هذا الكلام ؟

و كلما لقيت عمتي عَلَى الطريق تقول لي : صرت شاباً يا ابن اخي : فعليك ان تضع حداً لوالدتك التي امست فاحشة اكثر من الفاحشات .

و كذلك ابن عم والدي الذي تبرّع بتعليمي وبالقيام بكل حاجاتي يوصيني دائماً هكذا :

كن رجلاً ولا تكن سكّيراً كالمرحوم ابيك ولا ماجناً خالعاً كوالدتك .

ويكفيني ذلاً وغماً تهامس الناس عليّ عند اجتيازي الطريق الى المدرسة . وقد سمعت بعضهم احياناً كثيرة يتحدثون عني قائلين :

مسكين هذا الولد يعيش في محيط فاسق وبين احضان ام عاهرة .

****

قولي لي بحقكِ ايتها السيدة الفاضلة هل يقدر شاب شريف

ان يحتمل عار والدته واهانة الناس له بسببها ويسكت عنها ويظل بقربها ؟

اود ان تعلميها انني لا احتمل ذلك وان تخبريها ايضاً انني اقسمت على هجرها هجراً لا لقاء بعده اذا لم تغيّر سلوكها وتحافظ على كرامتها وكرامتي .

فاذا كانت تؤثر معاشرة السفلاء على ابنها فلي ملء الحق ان اعتقد نفسي يتيم الابوين وبلاد الله كلها مفتوحة امامي .

لقد ابكاني كثيراً هذا الولد واحرق قلبي عندما كلمني عن والدته وعن شدة تأثيره وانفعاله من اعمالها المنكرة . فوعدته ببذل كلما بوسعي لأجل اصلاحها .

وبقيت ايها الحكيم اكثر من شهر اكلمها بهذا الصدد كلاماً لو وقع على الجماد لشعر به .

ولم أدع وسيلة من الوسائل سواء اكانت من باب الارشاد او من باب التهديد بهجر ولدها لها لم اسردها امامها فلم تحفل بارشادي ولا بتهديدي . اذ لم يبق للشرف ولا لعاطفة الامومة من اثر في قلبها .

ومنذ ايام سمعتها تشتم ولدها شتماً لا يطاق وتنذره بعدم التدخل في امرها . وقد عرفت بعدئذٍ انه تركها وسافر الى جهة

مجهولة دون ان يودعها او يعلمها مقر اتجاهه .

* * * *

انني متأثرة كثيراً ايها الحكيم لترك هذا الولد مدرسته قبل اتمام دروسه . ولا سيما غربته وفقره وانكسار قلبه وهو لا يزال رطب العود قليل الخبرة والتدبير ... ولكن لا بأس فالغربة والحاجة تعلمانه كل شيء والعناية الالهية تحرسه في حله وترحاله لانه ولد عاقل ذكي لا يعدم من يناصره ويأخذ بيده .

ان والدته لا تستحقه فلا حرج عليه اذا اثر حياة الغربة على الحياة مهاناً بجانبها .

فلو كان عندها ذرّة واحدة من الشرف والاباء لشعرت بأن فراقه لها ومقاطعته اياها بسبب سوء تصرفها اشد عقاباً لها من الموت .

وقد قابلتها بعد سفره ولمتها كثيراً على عدم اهتمامها بارضائه ومحافظتها على عواطفه .

وقلت لها ايضاً : ان ملذات الدنيا باسرها لا توازي عند الام نظرة واحدة من ولدها . فكيف لم تضحّ ببعض ملذاتها اكراماً له وتجنّبا لفراقه ؟

فاجابتني لست مخطئة تجاهه بشيء . انني لم ازجره يوماً الاّ

لكثرة فضوله وتدخله بما لا يعنيه .

فاذا كان منذ الآن والغشاوة لا تزال على عينيه يودّ ان يستعبدني ويتسلّط عليّ فغداً عندما يشتدّ ساعده وتكتمل رجولته ماذا انتظر منه ؟

لا لا لن ادعه يتطاول عليّ ولا أن يفرض اوامره الجائرة ولا ان يتدخّل بشؤوني الخاصة .

انني أوثر الف مرة بُعده ولا استبداده .

ثم أردفت قائلة وهي تهزّ رأسها : ولكن غربته عن البيت مهما طالت لن تتجاوز الاسبوع . غداً أو بعد غدٍ ترينه راجعاً يطلب المغفرة عما صدر منه .

انني اعرف ولدي حق المعرفة فما هو جدير باحتمال مضض الغربة في هذه السن ولا هو اهل لأن يكسب معاشه من تعبه وعرق جبينه .

غداً ترينه عائداً الى البيت مكسور الشوكة طائعاً .

فأجبتها : لا اعتقد كما تعتقدين ولا اتأمّل بأنك غداً ترين وجهه فقد صرّح لي مراراً كما اخبرتك في حينه : بأنه اذا غادركِ فلن يعود اليكِ .

قالت : هذا كلام لا اعول عليه قليلاً ولا كثيراً .

لقد خبرت هذا الولد حق الخبرة ودرسته كل الدرس فهو ناقم على والدته كثيراً بسبب شذوذها . فلن يعود اليها ولن يحتمل عارها ولو سدّت بوجهه ابواب الرزق والتجأ الى التسوّل .

انها خسرت ولدها الى الابد وهي لا تزال معتقدة انه سيأتيها مستغفراً طائعاً .

فيا لشقائها !

والآن اسألك ايها الحكيم هل بين النساء مثل ليلى توئثرن الانغماس بملذاتهن على الاعتناء باولادهن وتستأثر الخلاعة بقلوبهن وتعمي ابصارهن وبصائرهن الى هذا الحد ؟

الحكيم — ان من يتفقّد الحياة الانسانية على الارض يرى من شذوذ الطبيعة البشرية ومن ضروب عجائبها وغرائبها ما يحيّر احكم الناس عقلاً وادقهم علماً وفهماً .

فكما ان الانسان مركب من خلايا متنوعة متباينة هكذا هو ايضاً مجموع شهوات متعدّدة متناقضة . فكلما تقاربت من التوازن شهواته تتوازن اعماله واخلاقه وكلما اختلفت تختلف نتائج سلوكه وفعاله .

ومتى طغت شهوةٌ على المرء فهي ولا شك تتسلط عليه

وتستأثر به سواء أكانت شهوة الغريزة الجنسية ام شهوة الطمع ام شهوة الحكم ام غيرها من الشهوات الضارة او المفيدة .

وعبثاً يحاول اي كان ايقاظ ضميره متى تحكّمت الشهوة في حواسه تحكماً تاماً . لأن الضمير يعجز في مثل هذه الحالة عن مصارعة الشهوة الجائحة الجامحة .

والناس كلهم خاضعون للشهوات نراها تستقوي عند بعضهم بسبب ضعف ارادتهم فتتغلّب عليهم وتفشل عن البعض الآخر بسبب قوّة ارادتهم فينتصرون عليها .

ولكن لسوء حظ الجنس البشري ان نزعاته الغريزية مفطورة اكثرها على الشر منها على الخير ولا ندري ما سبب ذلك أ لحكمة خفيّة في الطبيعة لا ندركها ؟ ام لنقص فيها لا نعرف نتائجه ومسبّباته ؟

ام لأن الطبيعة — وهو الاصوب في نظري — لا تفرق الخير من الشر لأنها فوق الخير والشر .

ولكننا نحن البشر ابناء هذه الطبيعة مهما ارتقت مداركنا وسمت معارفنا لا نقدر ان نسمو مثلها فوق الخير والشر .

لأن ميزة الخير من الشر ما هي بالحقيقة الاّ ميزة العمل المفيد الذي يؤول لارتقاء الجنس البشري من العمل الضار

المؤدي لانحطاطه .

. فنتيجة عمل الخير او الشر اذن هي نسبيـة تنحصر بنتائج اعمال الانسان وتتعلق بحياته القصيرة على الارض .

والآن مالنا ولهذا الموضوع فلنعد الى حديث ليلى — ليلى المسكينة التي غلبتها الشهوة على امرها في معترك هذه الحياة .

ان شذوذها يُعد شذوذاً عادياً بين غرائب شذوذ الناس .

فكم امرأة تفتك بزوجها واولادها لاشباع شهواتها وكم امرئ يتعمد قتل زوجته وبنيه لغاية في نفسه .

اما ليلى فلم تصل بشذوذها الى هذا الحد .

انها ضعيفة الارادة من طبيعتها فلم تقوَ على امتلاك عواطفها وكبت نزعات نفسها .

ومما زادها ضعفاً واستهتاراً زواجهـا برجلٍ مدمن خليع لم يحقق احلامها ولم يملأ قلبها .

فعلقت غيره واستسلمت بكليتها اليه .

ان ضعف ارادتها ومساوئ زوجها وغرامهـا الحاد بغيره ، كل ذلك اقصاها عن واجباتها كزوج وكأم .

وعندما تركها خليلها استولت عليهـا الانفعالات النفسية والثورات العاطفية لما هي عليه من ضعف الارادة والاستهتار .

وقذفت بها الى مهاوي اليأس .

ثم ارادت ان تتخلّص من يأسها فاوحت لها انانيتها طريق الفحش والمنكرات . فتوغلت بها وهامت على وجهها في بيداء الاثم لا تسمع صوت ضميرها ولا توسلات ولدها ولا تصغي الى ارشاد المخلصين من اقاربها واصحابها .

انها تنشد لذّة ضائعة في مهامه الحياة كما ينشد كل منا لذاته لكنها ضلّت عنها كما يضل الكثيرون وسلكت طريقاً تؤدي الى هلاكها .

وما مثلها في ذلك الاّ مثل المريض الذي يضلّ عن الدواء الشافي فيشرب السم الزعاف بدلاً منه ويقع في شرك الموت بينما هو يتداوى للتخلّص من الموت .

اما ولدها فحسناً فعل في تركها بعد ان عجز عن اصلاحها لأنه ينظر الى الحياة غير نظرها « وكثيرون هم الابناء الذين ينظرون الى الحياة بنظّاراتهم لا بنظارات آبائهم » وهو بقربها كالزنبقة النابتة بين الشوك . اذا ظلّت مكانها يخنقها القتاد واذا اقتلعت وزرعت في مكان أمين تكبر وتنمو وتعطي زهراً بديعاً عاطر الشذا .

ولا شك ان المستقبل القريب يحمل السعادة له والشقاء لها .

الفصل الحادي عشر

النهاية المشؤومة

في اوائل سنة ١٩٣٧ جاء الحكيم الى منزل سلمى ليقدّم لها ولزوجها واجب التهنئة في العام الجديد ويشكر لهما تلطفهما بزيارته وقيامهما بمعايدته .

وقد اتى بدراجة صغيرة اهداها فور وصوله الى ولدهما الصغير الجميل واوصاه الاّ يسرع بها كي لا توقعه . فتناولها الولد بفرح جزيل قائلا :

انها لا توقعني وقد كان عندي مثلها قدّمها البابا لي في يوم عيدي . وكنت اسابق السيارة بها دون ان اسقط عنها .

ثم ركب الدراجة وهمّ بالانصراف . فاوقفته والدته قائلة: وهل تذهب دون ان تشكر للحكيم هديته النفيسة ؟ فعندئذ توجه الولد نحوه شاكراً ثم انصرف يعدو عليها ذهاباً وايباباً في فناء الدار .

أما سلمى فاخذت تقص على الحكيم كيف قضت ليلة العيد في بيتها مع زوجها وبعض الاقارب والعيلات الكريمة .

وقد اسهبت في وصف المأدبة التي اقامتها في منتصف الليل لضيوفها وقالت : انها كانت شائقة رائعة كما كان استقبال العام الجديد في منزلها حافلاً بجميع انواع البهجة والحبور .

فاجابها الحكيم : لا شيء ابهج للقلب ولا امتع للنفس من قضاء الاعياد في محيط العيلة الفاضلة التي يخيم فوقها ظل الحب والسلام . لأن بهجة العيد الصحيحة لا ترتسم عَلَى الوجوه ولا تجتاح حبات القلوب الاَّ ضمن جدران المنازل التي يسود فيها حسن التفاهم والاخاء الحقيقي بين أفراد العيلة الواحدة .

ان كل يوم من ايام العام هو بمثابة عيد سعيد عند من يتمّم واجباته العيلية دون ان ينسى واجباته الانسانية . وكل عيد هو والحق يقال نذير شؤم عند من يهمل واجباته نحو عيلته وذويه وابناء محيطه .

فالحيوان الضار الذي لا يدرك نتيجة عمله هو خير من الانسان الضار الذي يتعمّد الاذى بينما هو يدرك عواقبه الوخيمة .

ثم جاء على ذكر ليلى ونتائج اعمالها المنكرة وقال : انها كانت شؤماً ووبالاً على عيلتها .

فاجابت سلمى : وعَلَى نفسها أيضاً ايها الحكيم لأنها منذ

خمسة عشر يوماً اصيبت بالجنون من جرّاء شدّة تهتكها .

فسألها الحكيم : كيف كانت حياتها بعد اغتراب ولدها وكيف ابتدأ جنونها ؟

قالت : انها بقيت مدة تعتقد برجوع وحيدها ولم تقطع الأمل من عوده الاّ بعد مضيّ ثلاثة اشهر على فراقه وخصوصاً عندما اخبرها احد اقرباء زوجها انه سمع من معارفه بان ولدها سافر الى مجاهل افريقيا . وعندما قيل لها ايضاً : بانه هبط مصر ودخل بخدمة عيلة ذهب برفقتها الى الشرق الاقصى .

ان ولدها لم يذكرها بكلمة منذ سفره ولم يكتب حتى الآن لأحد من اقربائه .

****

اما والدته فقد خلا لها الجو بعد ذهابه ولم يبقَ أحد يحاسبها على فداحة اعمالها ولا على جعل بيتها بؤرة لانواع الموبقات .

فامست كل ليلة تستقبل علانيةً جمهرة من المتهتكين والمتهتكات . وكأن الفسق وحده لم يكن كافياً لاشباع شهواتهم فكانوا في خلال تهتكهم يسكرون ويحششون الليل بطوله ويرقصون ويعربدون ويغنون غناء الرعاع وكانوا ينتهون غالباً فيما بينهم بالخصام والملاكمة حتى ضجّ الجيران منها ومن

زوّارها الخالعين واستنكروا اعمالها التي لا تطاق . وشكوها الى دائرة الاخلاق وزجّت مراراً في السجن . و كانت كلما خرجت منه تعود الى سابق حالها بأشدّ وافظع مما كانت عليه .

ويخيّل اليّ ان شبح ضميرها المائت كان يبدو امامها في بعض الفترات ويوئنبها على مساوئها بل كأن قلب الأم المتحجّر في صدرها والمحتضر قبل احتضارها لا تزال تختلج فيه بعض نبضات الامومة التي كانت تولد فيها وميضاً من الحنان فتذكر ولدها في ساعات وحدتها وسكونها وتبكي على فراقه . وقدجاءت اليّ مراراً وطلبت مساعدتي لأجل معرفة مقرّه . حتى انها في بعض الاحيان كانت تقبّح اعمالها وتظهر ندمها على سلوكها الشاذ وقد سمعتها مرّة تلعن نفسها مجاهرة على مسمعي بانها هي التي سببت بعد وحيدها عنها .

لكن ندمها ايها الحكيم كان يشبه هبوب الريح فلا تكاد تشعر به قليلاً حتى يتوارى عنها سريعاً ثم تعود الى الانغماس بجمأة رذائلها غير حافلة بوطأة شذوذها ولا بفرقة وحيدها .

أجل ان الرذيلة كانت متسلطة عليها ومتحكمة بها .

غير انها جاءت اليّ يوماً ولا ازال اذكر ذلك اليوم . و كان الشوق لرؤية وحيدها يمتلكها امتلاكاً والدموع تترقرق

عَلَى خديها وقالت لي بلهجة يغمرها الحزن والاسى :

هل جاءك يا سلمى خبر عن ولدي ؟ وهل عرفت مقرّه و كيف حاله ؟

ولما اجبتها انني حتى الآن لا اعلم شيئاً عنه . تنهّدت تنهد اليائسين وقالت :

ليتني مت اشنع ميتة قبل ان يتركني وحيدي .

يا ليت طيور السماء نهشت لحمي وحيوانات البيد قصمت عظمي قبل ان يغادر ولدي وطنه وهو هكذا صغير السن .

يا ليت امواج البحر ابتلعتني قبل ان تحمله الباخرة الى ديار الغربة .

يا ليتني اعرف مقرّه و كيف حاله .

ما انعسني اماً وما اشقاني امرأة .

وما ان نطقت بهذا الكلام حتى اخذت ترتجف ارتجاف المصاب بالدوار ثم تقززت عيناها ووقعت على الارض مغشياً عليها لأن اعصابها أمست منهوكة جداً من جراء التهتك والمسكرات فساعدتها ببعض المنعشات حتى استفاقت وعادت الى بيتها .

وبعد اسبوع جاءت اليّ مبكّرة وطفقت تندب سوء حالها امامي ثم اعترفت لي بانها مريضة خائرة القوى تشكو من بثورٍ

مزعجة ظهرت في جسمها منذ اكثر من نصف عام وهي التي سبّبت ألمها وهزالها. فنصحتها باستشارة أحد الاطباء وبترك هذه الحياة الخليعة التي لم تجنِ من ورائها غير المآسي .

فطلبت مني أن اقدّمها الى طبيب عيلتنا ليعالجها فاخذتها اليه ومنذ وقع نظره عليها اشتبه بمرضها فارسلها حالاً الى أحد الاختصاصيين ليفحص دمها فجاءه الجواب انها مصابة بالزهري . وما كاد الطبيب يبلغها نتيجة الفحص ويطلعها على العاقبة الوخيمة لهذا المرض ووجوب الابتداء بالمعالجة حالاً لعلها تبرأ منه حتى امتقع لونها وخافت خوفاً شديداً .

ومنذ ذلك الحين كثرت هواجسها وزاد بلبالها كما زادت ايضاً حقداً ونقمة على بني البشر . فأخذت بلا شفقة ولا رحمة ترتاد احياء المدينة وتلقي شباكها على المارين باذلةً جهدها لاصطيادهم .

و كانت تجلبهم الى بيتها افراداً وازواجاً وتلقحهم بجرثومة مرضها القاتل .

والويل كل الويل لمن كان يقع في قبضة يدها لأنها ما كانت تستثني احداً من الواقعين في شباكها لا شيخاً مسناً ولا شاباً في ميعة الشباب ولا يافعاً رطب العود .

تأمل بهذه المرأة كيف امست شراً مستطيراً على نفسها وضربةً قاطعة على الناس .

وفي عصارى يوم بينما كنت جالسة الى شرفة داري رأيتها آتية برفقة صبي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره وهو جميل الطلعة ممتلئ حياةً ونشاطاً .

ولما نظرته داخلاً بيتها استفزتني حميَّة الشفقة على عوده الرطب وعلى قلب امه الرؤوم فلحقت به الى داخل منزل ليلى وشرعت أوئنبها على مسمعه قائلة لها :

انك مصابة بالزهري فكيف تسوّل لك نفسك ان تلقّحي هذا الولد بجرثومة دائك الوبيل .

أفلا تشفقين على صباه ؟ أفلا تخافين الله ؟ ان قلبي ينفطر اسى كلما رأيت احداً يتألم امامي ألماً بسيطاً فكيف يسوّغ لك ضميرك بان تكوني وباءً فتّاكاً بالناس واداةً للشر الذي ليس فوقه شر .

ولما سمع الولد كلامي خرج من بيتها لا يلوي على شيء . اما هي فاستشاطت غيظاً وصاحت بي : يا للوقاحة كيف تدخلين منزلي دون استئذان ؟ اتتحاملين عليّ كل هذا التحامل ؟

ثم صمتت هنيهة وقالت بلهجة مقرونة بالقحة والحقد :

و كيف تريدين ان ارحم الناس ولم يرحمني احد منهم. و كيف اخاف الله من اجلهم ولم يخافوا الله من اجلي . و كيف لا اسعى لتشتيت شملهم وتسكير ديارهم بعد ان شتتوا شملي وسكّروا داري .

ان الناس كلهم اعداء لي فكم اتمنى لو كان بامكاني ان انتقم منهم جميعاً كما انتقم شمشوم من اعدائه واصرخ عندئذٍ كما صرخ : عليّ وعلى اعدائي يا رب .

ولما رأيت منها كل هذا التصميم و كل هذا الحقد على بني البشر تركتها وذهبت توًّا الى دائرة الشرطة وشكوتها لا لأجل الحاق الأذى بها وحبسها . بل لأدخالها مستشفى الحكومة حبًّا لها لعلها تبرأ من دائها وشفقة على الفتيان المساكين الذين يقعون في اشراكها .

فدخلتْ مستشفى الحكومة وبقيتْ قيد المعالجة اكثر من شهر هناك . ثم عادت الى منزلها واستكنت فيه وما كانت تخرج منه الاّ ساعة المعاينة المخصصة لها من الطبيب .

وقد قطعت علائقها قطعاً باتاً مع جميع اصحابها وأوصدت بابها بوجههم بعد ان كان مفتوحاً امامهم ليل نهار .

و كانت تقضي ايامها ضمن جدران البيت وحيدة محجوبة

عن الناس ما عداي لأنها كانت تزورني في بعض الاحيان وتشكو لي فرط يأسها و كثرة هواجسها وشدة أرقها .

وقد جاءتني صباح يوم وهي بغاية الاضطراب وقالت :

انها قضت ليلتها ساهرة وهي تتخيَّل أولادها بجانبها و كم تمنّت لو كان خيالها صحيحاً لتتمتع حقيقةً بهم . وقد تخيَّلتهم معاً وتخيَّلت كلاً منهم على حدة . فتمثَّل امامها ولدها المهاجر كيف تركها ممتعضاً منها ثم خيَّل اليها انه يتنقل في بلاد الله غريباً بائساً مرتدياً اسمالاً بالية ومستجدياً الاكفّ لسدّ رمقه ولا مأوى له .

ثم تمثَّلت ولدها الثاني وهو يتقلب على فراش الاوجاع في البيت وفي المستشفى و كيف كانت لا تكترث له كثيراً في أبان مرضه . وترآءت لها جثته الهامدة وتخيَّلت امامها تابوته الحقير وجدثه الوضيع .

ولما انتقلت الى ذكر ولدها الصغير الذي قضى نحبه مدهوساً تحت عجلات القطار الكهربائي هطلت دموعها وخنقتها العبرات ثم قالت لي بصوت منقطع :

ان اشلاء ولدي يا سلمى لا تبرح من مخيلتي ليلاً ولانهاراً وجثمانه المخيف المرعب حاضر ابداً في ذهني . اتخيله دائماً ملقى على

قارعة الطريق محطم الجمجمة والصدر ومبتور الساعد والرجل ومنثور اللحم والعظم .

واتصوّره ايضاً كما شاهدته عندما ذهبنا معاً الى المستشفى كتلة لحم وعظام مشوّهاً تشويهاً فظيعاً لا أثر لوجهه ولا لسائر ملامحه .

ان هذه التصوّرات المخيفة تعذبني عذاباً شديداً وخصوصاً عندما اتأمل بانني انا الجانية عليه بسبب طيشي واهمالي امر العناية به وبشقيقيه .

ان هذا الجرم الفظيع الذي ارتكبته قد كلفني غالياً ويا ليته كلفني حياتي ولا خسارة اولادي .

ثم اخذتْ ايها الحكيم تلعن نفسها امامي وتصبّ جام غضبها على الشاب الذي علقها وابعدها عن عيالها وقادها الى الفحش ثم تركها بعد ان قضى وطره منها كما تترك الجيف .

لقد قالت لي ايضاً : انها تقضي كل ليلة من لياليها بين الاشباح المخيفة — اشباح أولادها الضحايا واشباح ذنوبها الكثيرة التي حرمتها الراحة والنوم .

****

ومنذ عشرة ايام بينما كنت افتح النافذة التي تطل على

بيتها اذا بي اراها واقفة على باب غرفتها عارية كما خلقها الله وهي تضحك وتبكي في آن واحد . وتصلّي وتلعن في وقت واحد . ثم اخذت تركض في الغرفة وتقهقه قهقهة الفاقد الشعور . ثم ابتدأت تكسّر بعض الاواني البيتية وهي تشدو بعض اغاني الفاحشات وتراتيل الراهبات .

ثم وقفت امام مرآة خزانتها ومذ لمحت خيالها اعتقدته امرأةً عدوّة لها . فاخذت تشتمها شتماً فظيعاً وتتهمها بانها سلبتها خليلها وابعدته عنها . ثم صاحت باعلى صوتها : لقد حانت ساعة الانتقام .

وذهبت مسرعة الى المطبخ وجاءت بسيخ مسنون وبقطعة غليظة من الحطب واخذت تضرب المرآة بهما ضرباً متواصلاً حتى اجهزت عليها وحطمتها تحطيما ثم صاحت بملء فيها : لقد ثأرت لنفسي منك ايتها العاهرة .

شاهدت ذلك منها فايقنت انها خولطت في عقلها . وخفت من جنونها الهائج بان يصدر منها ما لا تحمد عقباه ، فاسرعت الى مخفر الشرطة وشكوت امرها ، فجاء نفر منهم واقتادوها عنوة الى مصحّ المجانين .

وقد ذهبت امس لعيادتها ولأجل الاستعلام عنها فلم يسمح

لي برؤيتها لأنها لا تزال بين المجانين الهائجين وقيل لي هناك : ان لا أمل بشفائها .

تأمل ايها الحكيم بشدة تعس هذه المرأة ونهاية حياتها المشؤومة .

الحكيم — يا سلمى : ان حياة هذه المرأة مأساة من اروع المآسي لأنها مثلت بنفسها افظع ادوار البشر .

دور المظلوم عندما كانت في اوائل صباها تحت سيطرة زوجها الاثيم .

ودور الظالم بعدما استسلمت للغرام وابتدأت تخون زوجها غير مكترثة له ولا لاطفالها .

ودور التوغل في الفحش والموبقات نكاية بخليلها الذي نبذها ، وبئس النكاية .

ودور الثائر عَلَى جميع الناس بعد ما اصيبت بداء الزهري الوبيل ، فاستيقظ فيها شيطان الانتقام الراقد في قلبها وجعلها كاللبوة الجائعة واقفة بالمرصاد لطريدتها ومتحفزة للانقضاض على كل من تكتحل به عينها .

وشيطان الانتقام في المرأة فظيع جداً فاذا استيقظ فيها لا يبقي على أحد ، لا على عدوٍ ولا عَلَى صديق ولا على ولد .

وعندما اشتدَّت اوجاعها و كثرت هواجسها انتقلت بحكم الطبع الى تمثيل دور الندامة واليأس ودور الاشباح المخيفة والذكريات الاليمة التي كانت اشد وقعاً عليها من الداء .

ليتها انتهت بعد ذلك الى القبر ولم تقسو عليها الطبيعة وتقودها الى تمثيل دور الجنون الذي افقدها شعورها وجعلها عبرة لغيرها لا لنفسها ، لأنها أمست لاتدري الآن أخيراً ما وصلت اليه أم شراً ، وثواباً ما تقاسيه أم عقاباً .

ان منتهى التعس والشؤم في هذه الحياة الدنيا ان يمسي المرء نذيراً لغيره لا لنفسه .

وما احكم الآية القائلة :

يا رب لا تجعلني نذيراً لغيري .

الفصل الثاني عشر

الحكيم يتفقد ليلى في مصح المجانين

جاء الحكيم الى مستشفى المجانين ليتفقّد ليلى . فذهب فور وصوله الى مكتب رئيس الاطباء الذي كان صديقاً حميماً له وسأله عنها ثم التمس منه بان يسمح له بزيارتها ويرافقه اذا كان لديه متّسع من الوقت لتفقّد المجانين الذين نبذتهم الحياة وقضت عليهم بتمثيل افظع دور من مآسي الوجود .

فنزل الرئيس عند طلبه وذهب به اولاً الى مستشفى النساء ليرى ليلى وكان يرافقهما المتولج امر تلك النسوة التاعسات اللواتي كانت كل واحدة منهنّ تقيم في غرفة وحدها . وامام كل غرفة فسحة صغيرة للتنزه يدخلها نور الشمس والهواء النقي من اطرافها المشبوكة بالقضبان الحديدية التي لا تمكّن الساكنة فيها من الخروج منها . أما الباب فموصدٌ ابداً لا يفتح الاّ عند عيادة الاطباء او عند جلب الحاجات اللازمة لكل منهنّ .

وقبل ان يبلغ الحكيم اول غرفة من غرف الهائجات سمع اصواتهنّ الممزوجة بين التهديد والوعيد والتوسل والاستعطاف

واللعنات والشتائم .

ولما بلغ اول حجرة رأى من بين الحديد مخلوقة هائجة شاذة الخلق والغرائز ثائرة على نفسها كما تثور الحمم وجادة في تمزيق ثيابها ولدم صدرها ورأسها .

كانت تبدو للعيان من جرّاء هياجها الشديد بشكل فظيع جداً يتخيّلها الرائي لأول وهلة كأنها ليست من مرتبة الانسان ولا من مرتبة الحيوان بل من عنصر غريب عنهما مركب من افظع عناصر الوجود .

فشرع الطبيب حالاً يعالجها ببعض المسكّنات . ثم توجه مع الحكيم الى الغرفة الثانية . وكانت المرأة القائمة فيها هادئة نوعاً . فلما وقع بصرها عليهما حملقت بهما وأخذت تزأر زئير الحيوان وصاحت بملء فيها :

ودّعوا نساءكم وأولادكم ايها الاوغاد — غداً اسلّط عليكم النار والكبريت وافنيكم على بكرة ابيكم — ان لي جيشاً من الجن يبيدكم بلحظة عين — خرّوا واسجدوا امام ملكتكم القابضة على زمام حياتكم والمتسلطة على قوات السماء وجحافل الارض

وكانت تقترب من الحديد وتهزّه هزّاً بكلتا يديها كأنها تودّ الافلات منه لتنقضّ على الواقفين امامها .

ثم انتقل به الطبيب لتفقد سائر الهائجات وقد سمع واحدة منهن تقول : لماذا وضعت بين المجانين وانا احكم الناس عقلاً واقدرهم علماً — انا لست مجنونة كما تعتقدون — انتم المجانين انتم الذئاب المفترسة — انتم الافاعي السامة — انا الحمل الوديع — أنا الحمامة اللطيفة — انا العذراء الطاهرة الذيل — انتم الخبثاء الجبناء الذين احتالوا عليّ ووضعوا السلاسل في عنقي لؤماً وخداعاً — انتم الانذال الخونة الذين تتبعون اثري من مكان الى مكان . موجهين ضدي عسكراً جراراً لأجل القضاء عليّ .

ولما بلغ الحكيم غرفة ليلى لم يعرفها لأن جنونها الهائج غيّر ملامحها تغييراً كلياً والنوبات القوية التي كانت تجتاحها تباعاً أحدثت حولاً فظيعاً في عينيها وخللاً بارزاً في تقاطيع وجهها . فعرّفه الطبيب بها . و كانت في تلك الساعة غير هائجة تسير في دار غرفتها ذهاباً وإياباً وهي منثورة الشعر — جامدة النظرات — ضائعة الفكر وسائحة في عالم اشباحها وتخيلاتها .

وعالم الاشباح هي عالم المجانين .

ولما اقترب الحكيم منها واخذ يلاحظها عن كثب متأملاً هيئتها الفظيعة التي تنكرت عليه . خيّل اليها انه عدوّ لدود جاء ليفتك بها فصاحت به :

أبعد ابعد ! ماذا تريد مني ايها الوقح ؟ أتريد قتلي لأنني انزلت الملوك عن عروشهم وقتلت المستبدين والظالمين الذين فتكوا بابنائي وطهرت الارض من النساء الخالعات اللواتي سلبنني حبيبي وأمتنه افظع ميتة ؟

ثم هجمت من بين الحديد وهي ترغي وتزبد كأنها تريد ان تنتقم منه لكنها لم تلبث حتى تراجعت الى الوراء وهي ترتجف خوفاً ثم شرعت تضحك قائلة : اهلاً بكم ومرحباً — ادخلوا هذه الحانة — اجلسوا على هذه الكراسي — العرق طيب هنا والخمر معتق — والموسيقى شجية — والنساء جميلات .

ادخلوا ادخلوا لا تخافوا ! لقد اعطيتكم الامان .

ادخلوا لقد أبتدأت الحفلة الراقصة .

ثم اخذت ترقص قافزة في دار الغرفة كما يقفز الطير الذبيح ومتمرغة على الارض كما تتمرغ البهائم .

فأومأ الطبيب للحكيم بان يبتعد عنها لعلها تهدأ نوبة جنونها أو على الاقل كي لا تزداد هياجاً لأنها غالباً عندما ترى الناس واقفين بقربها أو مارين امامها تتوتر اعصابها وتهيج هياجاً شديداً .

ثم مشيا معاً وانتحيا مكاناً يراقبانها منه دون ان تراهما .

وبعد أن تواريا عنها وقفت منتصبة في دار غرفتها وجمدت مكانها دون ان ترمش جفناً او تحرّك رأساً او ساعداً او رِجلاً كأنها جلمود لا حياة فيه . أو كأنها شبح من اشباح الجن أو اسطورة من اساطير الاقدمين .

فتأثر الحكيم للحالة الفظيعة التي وصلت اليها وأخبر الطبيب كيف كانت فتنة للناظرين و كيف أمست بعد جنونها هيكلاً مجسّماً للقبح . ثم سرد له قصتها من الاول الى الآخر وسأله عنها اذا كان يأمل شفاءها .

فأجابه : انه يعالجها اتماماً للواجب لكنه كطبيب لا يعتقد ذلك لأن مرض الزهري سمّم دمها واجهز على دماغها والكحول اتلفت كبدها واضعفت قلبها وشرايينها وسيُقضى عليها إثر نوبة من نوباتها الهائجة .

ثم قال للحكيم : أما المرأة التي نظرتها في الغرفة الثانية فشفاؤها ممكن لأن حالتها ابتدأت تتحسّن تحسناً مطرداً . فبعد ان كانت منقطعة عن النوم وعن الاكل انقطاعاً تاماً والنوبة تأتيها اثر النوبة اصبحت اليوم بعد المعالجة تأكل طعامها وتنام معظم الليل وبعض النهار وقد خف هياجها عما كانت عليه .

انها عصبية المزاج سوداوية الطبع شديدة التشاؤم لا تفكّر

الأ بما يؤذيها او بما يزعجها ويقلق راحتها فملكها داء النورستانيا واضعف دمها وقادها الى الجنون .

وقد اخبرني زوجها عنها انها كانت قبل جنونها غريبة الطبع تظهر في بعض الاحيان ذكاءً مفرطاً ولطفاً متناهياً لكنها لا تلبث ان تفقد توازنها فتنزعج بلا سبب موجب للانزعاج وتهرج بلا داعٍ للهرج .

و كانت لا تبقي في مخيلتها من الذكريات غير التي تسيئها .

ويكفي ان تفتكر بواحدة منها ليمتلئ قلبها بعوامل الانزعاج ويستغر طبعها بنار الغضب .

ولهذا السبب كانت تصدر منها افعال شاذة للغاية . وقد ألمح لي زوجها عن بعضها : منها انها كانت توقظه احياناً في الليل لاجل معاتبته على امور طفيفة عملها منذ عشر سنوات أو لأجل ان تذكره بكلمة غير مستحبة قالها لأحد اقربائها في عهد الخطبة .

و كانت تجسم الكلام وتعيده تكراراً على مسمعه بلهجة شديدة العنف لتظهر له فظيع اثمه الذي لا يغتفر .

و كانت ايضاً عندما يتوعك مزاجها قليلاً تشتدّ عليها السويداء فتسوء اخلاقها وتجعلها في منتهى الشراسة . فتقضي

اوقات انحرافها تارة بالانين وطوراً بشتم زوجها وخادماتها وبضرب اطفالها . مع ان زوجها كان يحسن معاملتها جد الاحسان ويعطف عليها كل العطف ويزداد عناية بها في ابان مرضها ويحاول دائماً تسكين روعها متحملاً شتائمها بدون امتعاض لأنه كان عالماً بضعفها وتوتر اعصابها . اما هي فكانت تزداد نقمة عليه وتحمّله دائماً تبعة مرضها وآلامها النفسية والجسدية .

ومما لا ريب فيه ان حالتها العصبية هي التي جعلتها معدومة الاتزان وسيئة الظن ودائمة التشاؤم .

فاذا تمكن الطب من شفاء جهازها العصبي شفاءً تاماً فهي ولا شك تبرأ من جنونها وتعتدل طباعها ويخف تشاؤمها وسوء ظنها .

ثم همّ الطبيب بالانصراف لاتمام دورة المستشفى فالقى الحكيم قبل ذهابه نظرته الاخيرة على ليلى فرآها لا تزال جامدة مكانها جمود الصخور ومنتصبةً كانصاب القبور وعيناها الغائرتان في وجهها ساهيتان في سماء الغرفة تائهتان في جو اشباحها وتخيلاتها الغريبة .

فقال في نفسه : ان الارزاء مهما كانت فادحة تسلب المرء بعض اشيائه وتبقي له على بعضها . اما الجنون فهو بحق يدعى رزء

الارتزاء وبلية البلايا لانه يعرّي صاحبه من كل شيء .

وبعد ان انتهى الحكيم من تفقد الهائجات ودرس حالتهن الفظيعة ونفسياتهن الشاذة . انتقل به الطبيب الى فرع النساء الهادئات وكنّ في الحديقة يتنزهن مع ممرضاتهن . فألقى الحكيم فور وصوله نظرة اجمالية عليهنّ جميعاً فرأى علائم الجنون بادية على وجوه بعضهنّ وغير ظاهرة على ملامح البعض الاخر اللواتي شاهدهن مجتمعات تتبادلن الاحاديث المختلفة كأنهنّ غير فاقدات الشعور .

ثم شرع الطبيب يشرح له سبب جنون بعضهن .

وانه لكذلك ، اذا بفتاة في مقتبل العقد الثاني من عمرها تقترب منهما وتشارك الطبيب في هذا البحث ثم اخذت تصف الاعراض التي تنتاب بعضهنّ وصفاً دقيقاً متزناً . فحسبها الحكيم لأول وهلة من معاوني الطبيب او احدى ممرضاته النابهات .

لكنها ما عتمت ان ابتدأت تخلط الحابل بالنابل متنقلة في احاديثها من التعقل الى الهذيان ومن الهذيان الى التعقل .

فسأل الطبيب عنها : فأجابه : انني اعرف هذه الفتاة منذ صغرها . كانت قبل مسّها شديدة الذكاء والنباهة متفوقة في عهد الدراسة على كل رفيقاتها ، ولما دخلت الكلية الطبية لتتلقى

فن التوليد كانت اصغر الطالبات سناً لكنها ادقهنّ علماً واعمقهنّ درساً وفهماً .

وبعد حصولها على الشهادة الطبية زاولت مهنتها مدة وجيزة لمعت فيها بسرعة البرق وبزّت بقوة حذقها واجتهادها ليس فقط رفيقاتها في الدراسة بل ايضاً بعض من سبقها من المولدات . حتى ان كل من عرفها وخبر نبوغها يومئذٍ املّ لها مستقبلاً باهراً .

وذات يوم جاءني والدها مضطرباً واخبرني انها خولطت في عقلها فجأة بينما هي تتناول طعام الافطار . فأسرعت اليها فرأيتها مختلةً فجئت بها حالاً الى هذا المستشفى .

وقد علمت من والديها انها كانت لا تكتفي باجهاد قواها في مزاولة فنّها ومعالجة مرضاها بل كثيراً ما كانت تصرف ساعات فراغها منكبّة على المطالعة والدرس الى ما بعد منتصف الليل .

فحصل لها اختلال من جرّاء كثرة اجهاد الجسم وتعب الذهن .

والأمل بشفائها عظيم بعد ان تنال قسطها من الراحة وحسن المعالجة .

ثم اشار الطبيب الى مريضة في مقتبل الكهولة هزيلة الجسم

مضعضعة الحواس جالسة وحدها بعيدة عن رفيقاتها ، وقال للحكيم: انك ولا شك تعرف هذه الآنسة التي ربما تنكّرت عليك الآن بسبب هزالها وتغير ملامحها .

هي الكاتبة المشهورة ألمع اديبات الشرق وارقاهنّ ثقافةً وعلماً .

لقد تألّبت عليها الكوارث واجتاحتها العوارض الجسدية والنفسية فأتلفت صحتها واجهزت على دماغها .

انني الآن ابذل كل ما بوسعي لأجل نجاتها . لأنها مفخرة من مفاخرنا القومية ومنارة من منائر العلم الساطعة في هذا الشرق . ويعزّ عليّ ان تنطفئ انوار معارفها قبل اتمام رسالتها .

لكنها اذا ظلت على حالتها هذه متمنّعة عن الطعام وقبول المعالجة فلا أمل لها بالشفاء .

وبعد ان حدّثه ملياً عنها وعن العوارض التي تنتابها من حين الى حين . ذهب به الى مستشفى الرجال . وهناك لم يمكث طويلاً لكي لا يعوق الطبيب عن متابعة اعماله النافعة .

ولم يزر الحكيم الاّ فرع الهادئين الذين كانوا في تلك الساعة يتنزهون في الحديقة المخصصة لهم .

فمشى والطبيب بينهم واخذ يتفقدهم واحداً واحداً ، فشاهد

معظمهم يتنقلون على غير هدى في ارجاء الحديقة كأنهم عميان لا يبصرون .

ويا ليتهم عميان البصر لا عميان البصيرة .

****

ثم شرع الطبيب يقصّ على الحكيم اهمّ اسباب جنونهم قال: ان الاكثرية الساحقة منهم قد فقدوا شعورهم من جرّاء كثرة ادمانهم ومن عواقب داء الزهري الوبيل . اما الاقلية الباقية منهم فقد خولطوا في عقولهم بسبب امراض متنوعة اهمها : الامراض العصبية المختلفة التي تحدث ضعفاً عاماً في الجسم وخللاً في نسيج الدماغ .

ثم امر الطبيب أحد معاونيه بان يدعوهم جميعاً اليه . وان يصفّهم فئة فئة امامه بحسب امراضهم ثم اشار الى الفئتين الكبيرتين وقال للحكيم : انظر ضحايا الزهري وضحايا المسكرات . وتأمّل كم هو كثيرٌ عددهم بالنسبة الى سائر الضحايا .

ولما تبيّن الحكيم عددهم الهائل وحالاتهم الفظيعة ورأى معظمهم في ريعان الشباب انقبضت نفسه وتأثّر تأثراً شديداً .

وعندما جاء يودّع الطبيب وضع يده بيده وخاطبه بهذه الحقيقة المؤلمة :

ان من يتدبر حياة الناس على الارض ويراقب نزعاتهم واطوارهم يرَ ان عدد هولاء الشبان الضحايا الماثلين امامنا في هذا المستشفى ليس فقط هو غفير في عالم المجانين بل في عالم انصاف المجانين ايضاً .

ولا أقول عالم العقلاء لأن الجنس البشري لم يبلغ بعد هذا العالم ولن يبلغه ولن يقترب منه الاَّ بعد ان يتعاون الحكماء والاطباء وعلماء المادة والروح تعاوناً تاماً في حل مشاكل الجنس البشري ومكافحة غرائزه الوحشية ومعالجة امراضه النفسية والجسدية .

اما الآن فيعزّ عليَّ كثيراً ان أرى الآفات البشرية تكتسح الناس بالملايين وتكبّلهم باغلالها ويد الانسان لا تزال عاجزة عن اكتساحها والقضاء عليها .

فهرست

(٢٨) الوحي

الفصل الاول

صفحة

سلمى وليلى ٥
الحكيم في بيت سلمى ٩
حديث المائدة ١١

الفصل الثاني

ليلى في بيت الحكيم ١٥

الفصل الثالث

الحكيم يلتقي بليلى في سهرة راقصة ٣٤

الفصل الرابع

سلمى تزور الحكيم وتحدثه عن جارتها ليلى ٤٣

الفصل الخامس

الحكيم يتأمل في شذوذ الآباء والامهات وتعس اطفالهم ٦٠

الفصل السادس

الحكيم يشاهد ليلى في نادي الشبان ويتباحثان في غاية الحياة ٦٩

الفصل السابع

صفحة

الحكيم يرتاد المصايف اللبنانية ويلتقي بليلى وخليلها ٩٢

الفصل الثامن

سلمى تزور الحكيم وتقص عليه حوادث ليلى الجنونية ١٠٦

الفصل التاسع

الحكيم يزور ليلى ويعزيها بوفاة ولديها وزوجها ١١٦

الفصل العاشر

الحكيم يزور سلمى فتقص عليه بعض اخبار ليلى ١٢٠

الفصل الحادي عشر

النهاية المشؤومة ١٣٥

الفصل الثاني عشر

الحكيم يتفقد ليلى في مصح المجانين ١٤٨

وقع في هذا الكتاب بعض اغلاط مطبعية لا تخفى على الناقد البصير .

DATE DUE

SAFETY LIB.
01 DEC 2002
Circulation Dept. 2

892.73 Sh53H
الشرتوني، توفيق حسن
الحكيم وليلى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038174

American University of Beirut

General Library

892.78
Sh562hiA
c.1